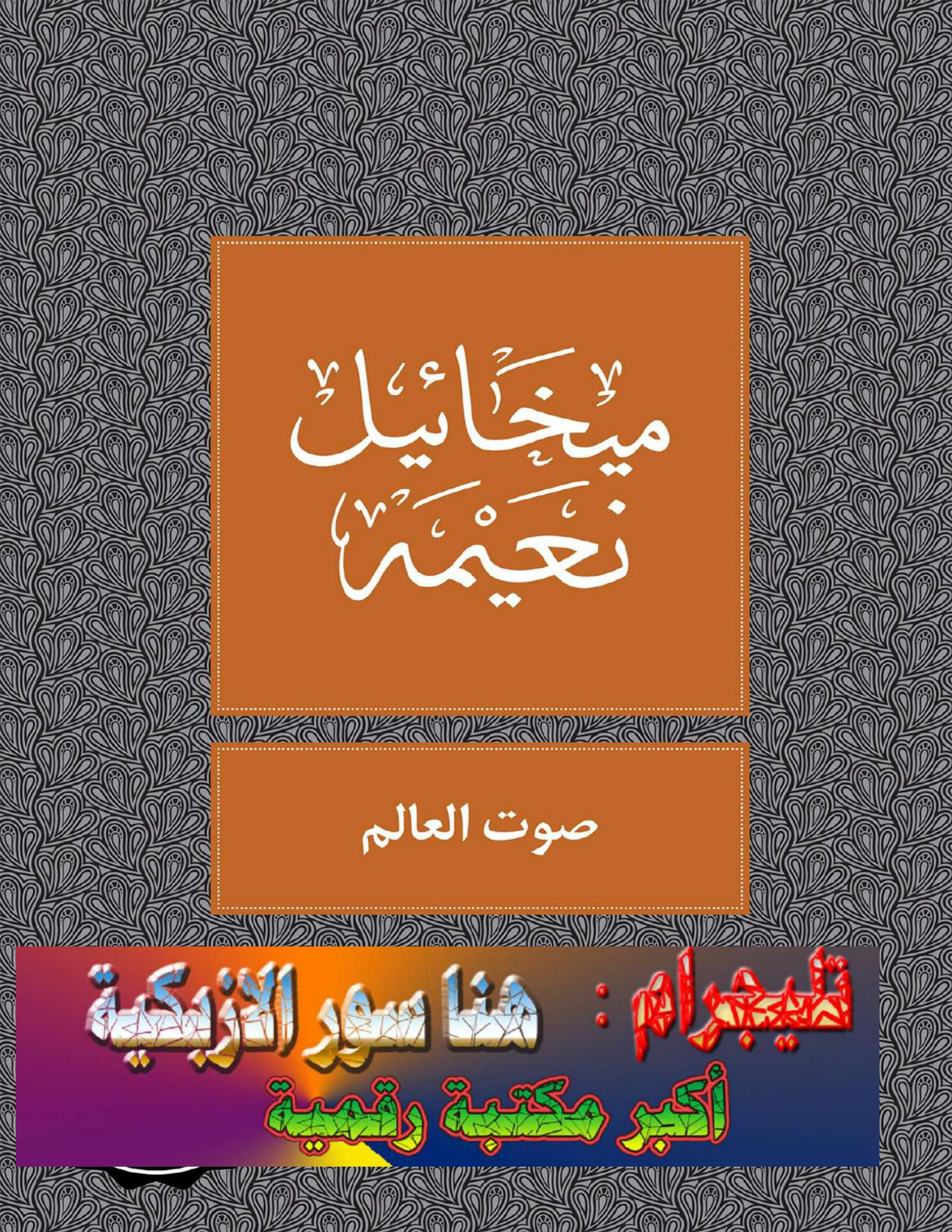

ميخائيل
نعيمة
صوت العالم


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية


أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

نوفل



أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

الطبعة الخامسة عشرة
صدرت عام2014 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

تصميم الغلاف: **معجون**

ر.د.م.ك. (الطبعة الورقية): 978-614-438-020-8
ر.د.م.ك. (الطبعة الإلكترونية): 978-614-438-448-0

صَوتُ العالم

في الكون أصوات لا تستوعبها أُذن ولا يحصيها خيال. فللكواكب في أفلاكها رنّات، وللنسائم والرياح في أجوائها هينمات وولولات، وللأمواج في بحارها زفير وهدير، وللأعشاب والأشجار وشوشة وحفيف، وللحشرات بأنواعها دبيب وطنين، وللطير بأشكالها صفير وترنيم. ثمّ هنالك الحيوان بأصواته. ومن ثمّ الإنسان بأصواته – وما أكثر أصواته.

يا لها من جوقة لا توصف. ويا له من لحن ساحر رهيب. وألف طوبى للأذن التي تستطيع سماعه، وللقلب الذي يسكر به، وللفكر الذي يضيع في معانيه.

أصوات، وأصوات، وأصوات. وكلّها يقول أشياء وأشياء، ويهدف إلى أشياء وأشياء، ولكنّها في النهاية تندغم كلّها في صوت واحد هو صوت الكون الشامل، وتهدف إلى شيء واحد هو هدف الكون الأبديّ. فأين صوت الإنسانيّة من ذلك الصوت، وأين من ذلك الهدف هدفها؟

وهل للإنسانيّة صوت، وهل لها هدف؟

كنّا حتّى أمسنا القريب إذا تكلّم أحد عن صوت الإنسانيّة حملنا كلامه على محمل المجاز. ذاك لأنّ الأرض كانت مترامية الأطراف، شاسعة الأبعاد، وكان أبناؤها يعيشون قبائل وشعوبًا منطوية على ذاتها. لا تسمع غير أصواتها وغير القليل من أصوات جيرانها، ولا تعرف غير أخبارها وأخبارهم. وفي الماضي السحيق كانت القبائل والشعوب تحسب حدودها حدود الأرض.

أمّا اليوم فقد تصرّمت الأبعاد، وتداعت السياجات التي كانت تفصل الأمم بعضها عن بعض. فإذا بالقصيّ يدنو، وبالمجهول يغدو معلومًا؛ وإذا بالأمم صغيرها وكبيرها، وبعيدها وقريبها تتبادل التحيّات والشتائم، والبضائع والقنابل، والسلام والدم؛ وإذا بالإنسانيّة تشكو أوجاعًا مشتركة، وبصوت واحد تطلب العافية والسلام والطمأنينة.

لو أنّ كارثة كانهيار سدّ مأرب حدثت في أيّامنا لسمعتْ بها في دقائق معدودة كلّ شعوب الأرض. ولكنّها في زمانها ما تعدّت البقعة التي نزلت بها إلّا بعد أجيال. ولو أنّ الفراعنة بنوا

أهرامهم في هذه الأيّام لكانت كلّ حركة من حركاتهم، وكلّ كلمة من كلماتهم، وكلّ ما يتّصل بالبناء من تفاصيل لا نهاية لها، تذاع على العالم مرّات في النهار، أمّا في زمانها فما درى بها إلّا البعض من أهل مصر والقليل من جيرانهم في حوض البحر الأبيض المتوسّط.

ولو أنّ كولومبوس اكتشف اليوم عالمًا جديدًا لطار الخبر في لمحة الطرف من القطب إلى القطب ومن المشارق إلى المغارب. أمّا منذ أربعة قرون ونصف القرن فاكتشاف أميركا لم يدر به حتّى سكان أميركا إلّا بعد أعوام وأعوام، ناهيكم بسكّان الهند والصين والجزر المنتشرة في عرض البحار.

كذلك قولوا في أهمّ الحوادث من دينيّة وزمنيّة: كخروج العبرانيّين من مصر، ورسالات موسى، والمسيح، ومحمّد في شرقنا هذا، وبوذا في الهند، وزارادشت في فارس. وكالحروب التي توالت موجاتها على الأرض فما تركت بقعة من بقاعها المعروفة إلّا اتّخذتها ميدانًا لها.

لقد كانت تلك الحوادث الجسام تمرّ بالأرض من غير أن يدري بها في وقتها إلّا القليل من أبناء الأرض. ولولا التاريخ الذي يدأب أبدًا في وصل ماضينا بحاضرنا لَما استطعنا أن نصوّر الإنسانيّة الماضية إلّا أعضاء مفكّكة لا تربطها أعصاب واحدة في جسم واحد. ولكنّ التاريخ بربطه ما كان منّا بما هو كائن، يسهّل علينا أن نرى الإنسانيّة، على وفرة شعوبها وتعدّد مسالكها، قافلة واحدة تسير في طريق واحد إلى هدف واحد. وتلك حسنة من حسنات التاريخ تكفّر عن جميع سيّئاته.

إذن كانت الإنسانيّة في كلّ عصورها جسدًا واحدًا وإن بدت أعضاؤها متباعدة، متقاطعة، وبدت غاياتها متشاكسة، متضاربة. والجسم الإنساني الذي نعرفه اليوم هو الجسم الذي عرفته آلاف السنين من قبل؛ ولكنّه قد تطوّر. فإذا به ما هو الآن.

وإذن كانت القبائل والشعوب تتعارف وتتنافر، وتتصادق وتتعادى، وتتعاون وتتطاحن. ولكنّها – من حيث لا تدري – كانت تعمل يدًا واحدة على حفظ ذلك الجسم الإنساني من الهلاك وعلى الوصول به إلى ما هو عليه اليوم، وإلى حيث هو اليوم.

وإذن كان للإنسانيّة صوت في جوقة الكون منذ أن كانت الإنسانيّة . وكان لصوتها هدف. أمّا الصوت فبإمكاننا لو كانت لنا الأذن الحسّاسة، أن نسمعه في صوت إنسانيّة اليوم على حد ما نسمع في صوت الشباب صوت الطفولة. وأمّا الهدف فباستطاعتنا لو كانت لنا العين النقّاذة أن نتبيّنه من خلال أهدافها اليوم.

فماذا تقول إنسانيّة اليوم، وإلى ماذا تهدف؟

ما شهد العالم في كلّ ما شهد سيلًا جارفًا من الكلام كالذي يشهده اليوم. فهو ينهلُّ علينا بغير انقطاع من شفاه الأثير، ويتفجّر من دواليب المطابع، ويفور من بين عيدان المنابر، ولا فرق من هذا القبيل بين غرب وشرق، أو بين بلد كبير وبلد صغير. فالتيّار واحد في كلّ مكان.

ما ذاك لأنّ العالم صام زمانًا عن الكلام فراح يعوّض عن صيامه بالثرثرة. فالعالم ما عرف الصمت يومًا من أيّام حياته، ولكنّه ما عرف كذلك مرحلة كثرت فيها الوسائل لنقل الكلام كالمرحلة التي هو فيها اليوم. فالصحف من يوميّة وأسبوعيّة وشهريّة أكثر من الهمِّ على القلب. والكتب بجميع أصنافها تقفز من العدم إلى الوجود قفز الجنادب في المرجة الخضراء. ومحطّات الإذاعة اللّاسلكيّة لا تفتر تحشو الآذان بما قيل وما يقال. حتّى كأنّ العالم في حمّى وفي هذيان. أو كأنّ الناس جنّ جنونهم فتحوّلت الأرض إلى مارستان.

في هذا السيل الجارف من القيل والقال كلمات تتردّد أكثر من غيرها على كلّ شفة ولسان: الحرب والسلم. الاستعمار والاستقلال. الرخص والغلاء. الاستثمار والاحتكار. الفوضى والاستقرار. الذهب الأسود والذهب الأصفر. الأسواق الحرّة والأسواق المقفلة. وسلسلة لا نهاية لها من الأزمات: أزمة التموين، وأزمة السكن، وأزمة النقد، وأزمة المدارس، وأزمة المواصلات، وسواها ثمّ سواها من الأزمات. وهذه الكلمات والأزمات تضخّمها الأغراض في ذهن السامع إلى حدّ أن تصمّ أذنيْه وتكفّ عينيه عن كلّ أمر عداها. فكأنّها من حياة البشريّة لبابها، وكلّ ما عداها قشور. وكأنّ البشريّة إذا ما نالت السّلم والاستقلال والرخص والاستقرار نالت المعرفة التي لا سلم ولا استقلال ولا استقرار بدونها. أو كأنّ البشريّة إذا انحلّت أزماتها الماديّة انحلّت في الحال أزماتها الروحية. فغدت لا تكذب ولا تظلم ولا تسرق ولا تقتل ولا تزني ولا تبغض ولا تطمع من خيرات الأرض بأكثر من حاجتها، ولا تمرض، ولا تتألّم، ولا تموت... ألا ليت القائمين على مقدّرات البشريّة – وبالأحرى أولئك الذين يتوهّمون أنّهم القائمون على مقدّراتها – ألا ليتهم يعلمون أنّ أزماتها إنّما هي أزمات قلوب لا أزمات بطون. وأزمات أفكار لا أزمات جيوب.

كنّا إلى عهد قريب لا نحمل من هموم الأرض إلّا همومنا، ولا نبثُّ في أذن الفضاء غيرَ شكوانا ونجوانا. أمّا اليوم فما ندري هموم من نحمل فوق همومنا، وشكوى أيِّ الناس ونجوى أيِّ الشعوب نبث إلى جانب شكوانا ونجوانا. فما من أمّة إلّا تستغيث، وتعربد، وتهدّد، وتندّد. وما من دولة إلّا تطمح إلى تركيز عَلمها على هامة الجوزاء. وما من بلد إلّا ينبح على بلد آخر، أو يكشّر لبلدان أُخرى.

ما هذا الذي نحن فيه؟ أهو عتاب الأصحاب بعد طول الغياب؛ والعتاب صابون القلوب؟

أجل. إنّه لعتاب. ولكنّه – ويا للأسف – أبعد ما يكون عن الصابون.

أم هي الفوضى تغلي مراجلها وتفور؟ أم أنّ ربّان سفينة البشريّة قضى وكفّه على الدفّة، فتاهت السفينة بين الريح والموج، ودبّ الذعر في الركّاب، فكانت البلبلة، وكانت الجلبة، وكانت الضوضاء التي تسمعون؟

وهل لسفينة البشريّة ربّان، ومن هو؟

إنّكم لو صدّقتم كلّ ما تسمعون، بل بعض ما تسمعون، لقلتم إنّ للبشريّة ربابنة لا ربّانًا واحدًا، وإنّهم على سلامتها أبدًا ساهرون. وها هم اليوم – أكثر منهم في كلّ يوم – منهمكون في تنظيم شؤونها، وتنظيف بيتها، والقضاء على أوبئة ما تزال تنهشها نهشًا. فهم – والَهف قلبي عليهم – يصلون الليل بالنهار في دأبهم وراء إسعاد الناس وتحريرهم من الخوف والعوز والوصول بهم إلى ميناء السلام. وها هي ذي أصواتهم تتسابق إلى الآذان في كلّ مكان وترتفع فوق كلّ صوت. وها هي ذي أعمالهم على كلّ شفة ولسان. وما من شكّ يخامرهم أبدًا أو يخامر سامعيهم والمعجبين بتفانيهم في أنّهم إذ يتكلّم ون فبلِسان البشريّة يتكلّم ون. وأنّهم إذ يقرّون أمرًا فلِخير البشريّة ما يقرّون. وأنهم يعرفون هدف البشريّة. فهم إلى ذلك الهدف بسفينة البشريّة سائرون.

أولئك هم ساسة العالم. وأولئك هم رجال الاقتصاد فيه. والسياسة والاقتصاد ما برحا حليفين منذ أصبح الناس جماعات تساس وتنعم بخيرات الأرض والسماء. فالسياسة تبني بيتها على الاقتصاد. والاقتصاد يشيد صرحه على السياسة. والاثنان يقيمان حصنهما على حدّ السيف.

ذاك هو التحالف الثلاثي الذي ما تصدّع حتّى اليوم. وأولئك هم الحلفاء الأوفياء الذين نذروا أنفسهم لخدمة الإنسانيّة والسير بها إلى مراتع السعادة ومروج الهناء. فلا عجب أن ترتفع أصواتهم فوق كلّ صوت وفي كلّ زمان ومكان. فهم في اعتقادهم واعتقاد الناس إنّما يتكلّم ون بلسان البشريّة جمعاء. فالأرض منبرهم. وآذان الناس أينما كانوا وقفٌ على ما يقولون. والأرض ميدانهم، والناس جندهم، والقيادة لهم. فما على الناس إلّا الامتثال لما يأمرون وينهون.

ولولا أنّ الشمس ما تزال تشرق وتغرب في مواعيدها، والكواكب ما تنفكّ تدور وتتغامز في أفلاكها؛ ولولا أنّ الأرض ما تبرح أرضًا، فالبحار تنشد أحلامها الأبديّة ضمن شطآنها، وما في البحار من غريب العوالم يحيا حياته بنظام، والأشجار تُزهر وتورق وتُثمر ثمّ تتعرّى لتعود فتزهر وتورق وتثمر من جديد؛ والطير تتزاوج وتبني أوكارها، وتبيض وتنقف فراخها؛ والحيوان يأكل ويشرب ويتناسل ويموت، ومثله الإنسان، والليل يطوي النهار فلا يلبث النهار أن يطوي الليل؛ والفصول تزدرد الفصول، ثمّ تتقيّأها لتعود فتزدردها وتتقيّأها عامًا بعد عام وقرنًا تلو قرن. أقول: لولا كلّ ذلك لأوهَمَنا رجال الحلف الثلاثيّ بأنّهم ليسوا ربابنة البشريّة لا غير، بل ربابنة المسكونة بأسرها. فالحياة في يمناهم، والموت في يسراهم، والحقّ في أفواههم، والعدل في نصالهم، والحرّية من شقوق أقلامهم. وهم مهندسو العالم، وهم البنّاؤون.

وماذا عساهم يهندسون ويبنون؟

إنّهم ليهندسون عالمًا كلّه سدود وحدود، وذلك في فضاء لا سدود فيه ولا حدود، ولكائن عجيب اسمه الإنسان ما فتئ منذ أن كان يناضل بكلّ قواه ضدّ الحدود والسدود. فهو قد اتّخذ من ذكائه أجنحة ليتخلّص بها من حدود المسافات تكبّل رجليه البطيئتين. مثلما جعل للأثير ألسنة تنطق

بلسانه، وآذانًا تسمع بأُذنه ليعتق لسانه وتتحرّر أُذنه ممّا قام في سبيلهما من سدود. وهو قد فتح قلبه لكلّ القلوب مهما يكن لون أصحابها أو دينهم أو موطنهم. فدمعة في عين إنسان أسود تفهمها دمعة في عين إنسان أبيض. وبسمة على وجهٍ أحمر ليست غريبة عن بسمة على وجهٍ أصفر. فالحزن والفرح، والموت والحياة لا تعرف السدود والحدود، ولا موطن لها إلّا قلب الإنسان. وقلب الإنسان هو هو في كلّ مكان. أمّا فكره، وأمّا خياله فمن ذا يستطيع أن يقيم في سبيلهما حدودًا أو سدودًا؟ أليست أفكار الناس تتلاقح وتتوالد بغير انقطاع هازئة بالحدود وساخرة بالسدود؟

لأيسر أن تقيموا الحدود بين أشعة الشمس، والسدود بين نسمات الجو أو أمواج البحر من أن تقيموها بين فصيلة وفصيلة من الناس، أو بين قطر وقطر من أقطار الأرض. فأفكار الناس وأحاسيسهم وأحلامهم في اتصال أبديّ رغم المسافات والعقبات، ورغم الحدود والسدود، ورغم كلّ ما يبذله رجال السياسة والاقتصاد والحرب للحؤول دون ذلك الاتصال. أمّا ترون إلى الآداب والعلوم والفنون كيف تتخطّى الحدود وتخترق السدود لتصل الناس أينما كانوا، ومن أيِّ جنس كانوا، بعضهم ببعض؟ فابن رشد، وإن يكن عربيّ المنبت واللسان، ليس للعرب وحدهم ولا هو تناول أفكاره منهم دون غيرهم من الأمم. وشكسبير، وإن يكن إنكليزيّ المولد، ليس للإنكليز وحدهم، ولا هو استمدّ أدبه من تربة إنكلترا وحدها. كذلك باستور ليس للفرنسيّين، ولا بتهوڤن للألمان ولا تولستوي للروس ولا أديسون للأميركيّين بل للناس أجمعين. وهكذا قولوا في كلّ مَن أنجبتهم الإنسانيّة من عباقرة ورسل ورفعتهم منائر لكلّ من طلب النور من أبنائها بقطع النظر عن الجنس والموطن واللسان.

إن تكن أفكار الناس وأحاسيسهم وأحلامهم في تزاوج دائم عبر الحدود والسدود، فأيُّ مبرّر بعد للسدود والحدود؟ أليس الذين يخلقونها ثمّ ينفقون جهودهم وجهود العالم في تدعيمها وتثبيتها إنّما يهدرون جهودهم وجهود العالم إذ يعاندون الله، ويقاومون الطبيعة، ويعرقلون خطى الإنسان في سيره إلى هدفه البعيد، ألا وهو التخلّص من كلّ الحدود والسدود؟ أليسوا يحاولون المستحيل؟ فما دامت أفكار الناس ومشاعرهم وأشواقهم في اتصال لا انفصال فيه، فأيّ بطولة هي التي تقتصّ منهم بتقييد أيديهم وأرجلهم لا غير؟ وأيّ حكمة في تلك البطولة؟ ومتى كان الإنسان بيديه ورجليه قبل أن يكون بفكره وقلبه؟ ومتى كان ببطنه قبل أن يكون بخياله؟ أو بلون جلده وشكل جمجمته قبل أن يكون بلون إيمانه وشكل هدفه؟

ذاك هو العالم الذي يهندسه لنا رجال التحالف الثلاثيّ – عالم حدود وسدود ما ثبتت يومًا لريح ولا جلبت للناس غير الكروب والحروب. ومن ثمّ فهم يرسمون ما يرسمون، ويخطّطون ما يخطّطون في معزل تامّ عن الكون، وعن مشيئة ربّ الكون. وهل عالمنا البشريّ بالنسبة إلى الكون

إلّا كنقطة في مصحف؟ إنّها لنقطة ذات قيمة من غير شكّ. ولكنّها ليست المصحف. ولكنّها تجهل القصد من المصحف ومن وجودها فيه حيث هي. أمّا كاتب المصحف فيعرف ما تجهل.

وهل مشيئتنا إزاء مشيئة ربّ الكون إلّا كخيط واحد في نسيج خيوطه لا تُحصى ولا تُعدّ؟ إنّه لخيط لا يكتمل النسيج بدونه. فهو من الأهميّة بمكان. ولكنّه لا يعرف الصلات التي تربطه بباقي الخيوط، ولا قصد الحائك منه ومنها. أمّا الحائك فيعرف. فللكائنات من وجودنا غايات، مثلما لنا من وجودها غايات. ونحن ما لم نعرف غاية الكون منّا وغايتنا من الكون، تعذّر علينا التوفيق بين الاثنتين. ونحن ما لم نوفّق بين الغايتين، بقينا ريشة في مهب الريح وخشبة على غارب اليمّ.

إنّ مَثَل الذين يهندسون عالم الإنسان في معزل عن سائر العوالم هو مثل جماعة من الفئران استوطنت مخزنًا من مخازن سفينة في بحر. ثمّ راحت تتسابق وتتقاتل وتتناهش على ما في المخزن من مأكل ومشرب، وتتشاحن في أيّها الأهمّ والأشرف والأقدر على تسيير السفينة. وإذ أعياها القتال راحت تعقد المؤتمرات لاقتسام ما في المخزن، ولتقرير الاتجاه الذي يجب أن تتخذه السفينة؛ كلّ ذلك من غير أن تحسب أقلّ حساب لركّاب السفينة وحاجاتهم إلى ما في مخازنها، ولا للبحر وأنوائه، ولا للكواكب ومجاريها، ولا لربّان السفينة ويده التي على الدفّة، ومشيئته التي من خلف يده.

كيف للإنسان أن ينظّم عالمه من غير أن ينظّم كلّ العوالم التي تتشابك حياته بحياتها تشابكًا لا ينفذ البصر إلى أوّله ولا البصيرة إلى آخره؟

كيف له أن يوزّع خيرات الأرض والسماء بالإنصاف وما هي من عنده ولا في قبضته؟ ولو شاءت الأرض والسماء لحبستا عنه خيراتهما؛ فعليه قبل أن يحالف إنسانًا مثله أن يحالف السماء والأرض أوّلًا. وإلّا كان ما يزرعه عذابًا مرًّا، وما يحصده عذابًا أمرّ.

كيف له أن يتحرّر من جاره وهو وجاره عبدان للتراب وكلّ ما ينبته التراب، وللهواء وكلّ ما يتنفّسه الهواء، وللبحر وكلّ ما يقذفه البحر، وللكواكب وكلّ ما تفعله الكواكب؟ وماذا أقول في عبوديّته لأهوائه ولجهله وادّعائه؟

كيف له أن يسيّر سفينته، وما هو وسفينته سوى بعض من حمولة سفينة لا حدود لها ولا سدود في وجهها – هي سفينة المسكونة؟

كيف له أن يعرف اتّجاهه من غير أن يعرف اتّجاه السفينة الكبرى ومشيئة ربّانها – وهي مشيئة الله؟

كيف له أن يعرف مشيئة الله من غير أن يؤمن بالله؟

وأخيرًا، كيف له أن يؤمن بالله من غير أن يؤمن بنفسه؟

وإذن كان الإيمان بالله وبالإنسان الذي هو صورة الله ومثاله حجر الزاوية في حياة الإنسان. وكلّ بنيان لا يقوم عليه مصيره حتمًا إلى الانهيار. وهو مصير العالم الذي هندسه من قبل، ويهندسه اليوم رجال الحلف الثلاثي. ذاك لأنّهم لا يسمعون ولا يعون من أصوات العالم إلّا قرقرة البطون، وإلا فحيح الشهوات السود في قلوب ما تزال رهينة الجوع والعطش إلى أخسّ اللذّات البهيميّة وأقذر موارد «المجد» و«الشرف». أمّا حنين الإنسان الأبديّ إلى الانعتاق من الحدود والسدود والوصول إلى حيث لا قيود ولا سدود – أمّا ذلك الحنين الصارخ الصابر فلا يسمعونه ولا يعونه. في حين أنّ ذلك هو صوت العالم بأسره من الأزل وإلى الأبد.

وعلامَ يزمع مهندسو العالم أن يبنوا العالم الذي يهندسون؟

إنّهم ليحاولون بناءه على براكين النفط... وعلى أسنمة الأمواج! وعلى الفلس، وعلى شفرة السيف. ومن بعد ذلك على ما يستطيعون أن يوقظوه في قلوب الناس من جشع وبغض وحذر وخوف، وأن يثيروه في أفكارهم من قلق وشكّ وسوء تفاهم وقطيعة. أمّا الصدق الذي ما مات بعد في الناس؛ وأمّا المروءة وحبّ التعاون والشعور بالمسؤوليّة الإنسانيّة المشتركة تجاه ما يزال عاصيًا وغامضًا على الإنسان؛ وأما الإيمان بالإنسان وهدفه البعيد الذي يفوق الوصف والتصوّر، فهذه كلّها لا تصلح في نظر الحلف الثلاثيّ أُسسًا للبناء. مثلما لا يصلح حارسًا له إلّا المدفع. ذلك المدفع بعينه الذي ما حرس إلى اليوم بناء إلّا دكّه. وها هي ذي أصوات بنّائي العالم تملأ الجوّ والصحف، والناس يصغون بلهفة، ويقرؤون بشوق، ويهلّلون، ويكبّرون – وينتظرون.

أمّا أنا – أعاذني الله وإيّاكم من خيلاء هذه الكلمة ومتّعنا بوداعتها – فقد رأيت السياسة كالبركة العكرة، ورأيت السياسيّين كالأولاد يغتسلون فيها فلا يزيدونها بحركاتهم إلّا عكرًا، ثمّ يعجبون لها كيف لا تصفو ولا تسكن. ولو أنهم تركوها وشأنها لصفت من تلقائها وسكنت.

ورأيت الاقتصاد والاقتصاديّين يقتلون بعض الناس بالتخمة، وأكثرهم بالجوع، ثمّ يعجبون لهذا العالم كيف لا يستقرّ على حال بين جائعه ومتخمه. ولو أنّهم تركوا أمر توزيع الأرزاق لباعث الأرزاق لأراحوا الناس واستراحوا. فللحياة ضرع بثديّ كثيرة. وعيال الحياة تتناول من ضرعها كلّ على قدر طاقته وحاجته. فقيمة الغذاء ليست في كميّته على قدر ما هي في مناسبته للمغتذي. ومن ثمّ فشأن الحياة مع الراضعين من ضرعها فوق حاجتهم، أن يتحمّض لبنها في جوفهم ويتحوّل سمًّا زعافًا. فلها العقاب ولها الثواب. لا للساسة ولا للاقتصاديين.

لا. ما بنت السياسة حتّى اليوم بيتًا إلّا قوّضته السياسة. ولا شاد الاقتصاد صرحًا إلّا دكّه الاقتصاد. ولا قامت مملكة على حدّ السيف إلّا هوَت بحدّ السيف. ذاك لأنّ الإنسانيّة ما كانت يومًا من الأيّام مجموعةً سياسيّةً أو اقتصاديّة أو حربيّة لا غير. بل كانت – وما برحت – ذريّة إلهيّة في طريقها إلى مصدرها الإلهيّ. وطريقها طويل وشائك ومتعرّج. وفي جملة أشواكه وتعاريجه حدود

السياسة وصدود الاقتصاد وويلات الحرب الناتجة حتمًا عن تلك وهذه. فهي، وإن تقيّدت في سيرها بحدود وسدود، فلتجتازها إلى حدود وسدود أبعد فأبعد، وأوسع فأوسع إلى أن تصبح آفاق الزمان آفاقها، ومدى اللّانهاية مداها.

يكاد من يسمع في هذه الأيّام أصوات البشريّة المبلبلة وقد طغت عليها أصوات السياسيين والاقتصاديّين ورجال الحرب يجزم بأنّ تلك الذريّة الإلهيّة قد رهنت ميراثها الروحي لإبليس لقاء دريهمات برّاقة خدّاعة زائفة. فهي اليوم أحوج ما تكون إلى من يستفكُّ ميراثها ويردّه إليها صافيًا، كاملًا، وطليقًا من كلّ قيد وشرط.

أمّا ميراثها فالإيمان بالله الذي لا حياة إلّا منه، ولا وجود إلّا فيه، ولا حرّيّة إلّا في محبّته، ولا عدل إلّا في نظامه، ولا قدرة إلّا في معرفته. والإيمان بالله لا يقوم إلّا على الإيمان بالإنسان. وأما إبليسها فوَهم يبثّه رجال الحلف الثلاثيّ في أفكارها بأن لا وجود لها إلّا ضمن الحدود الجنسيّة والإقليميّة، ولا راحة إلّا وراء السدود الاقتصاديّة والاجتماعيّة، ولا حقّ إلّا للقوّة، ولا قوّة إلّا للمدفع. وأنّ هناك «مدنيّة» لا حياة إلّا منها، ولا سعادة إلّا بها، ولا حريّة إلّا في نظمها، ولا عدل إلّا في ميزانها. ولو أنّها عرفت من الحريّة أكثر من اسمها، ومن العدل أكثر من حروفه لما كانت تتخبّط في دياجير المحن والقلاقل كما نراها اليوم. هي المدنيّة التي قُلت فيها قبل اليوم إنّ قلبها في بطنها، وفكرها في جيبها، فإن جاع بطنها جاع قلبها، وإن أقفر منها الجيب أقفر منها الفكر. وما الحقّ والعدل والحريّة والإخاء والمساواة سوى كلمات على شفتيها. أمّا معانيها ففي بطنها وفي جيبها.

وأمّا الدريهمات البرّاقة فكلمات مطليّة بالسكّر، محشوّة بالحنظل: استقلال. حريّة. ديمقراطيّة. وطنيّة. مجد. شرف. مكانة في الشمس. وما إليها من الكلمات التي تغوي ولا ترضي.

إنّ قلبًا مؤمنًا لقلبٌ عادل أبدًا. العادل لا يظلم، والمظلوم لا يعدل. والعالم اليوم مظلوم وظالم. ولن يعرف العدل حتّى يعرف الإيمان.

إنّ فكرًا مؤمنًا لفكرٌ يستحيل على العبوديّة أن تبني فيه أعشاشًا. الحر لا يَستعبِد والعبد لا يحرّر. والعالم اليوم مستعبد ومستعبَد. ولن تكون له الحريّة حتّى يكون له الإيمان.

إنّ روحًا مؤمنًا لروحٌ غنيّ وعزيز. الغنيّ لا يستجدي. والفقير لا يجدي. والعالم اليوم يستجدي ولا يجدي. وسيبقى فقيرًا وخسيسًا إلى أن يتذوّق غنى الإيمان وعزّة الاعتصام به.

ليت لكم أن تصغوا إلى العالم بآذان ما شغلتها جلبة السياسيّين والاقتصاديّين ورجال الحرب عن كلّ ما في العالم. إذن لسمعتم قلب العالم ينبض بأشواق لافحة إلى طعام وشراب غير الخبز والماء، وإلى سلم غير سلم المؤتمرات والمعاهدات، وإلى طمأنينة غير التي يهدر بها المدفع وتذود عنها الدبّابة. إنّه ليشتاق الإيمان الحيّ وما فيه من غذاء وسلم وطمأنينة.

أجل! ذلك ما يصبو إليه العالم: الإيمان! وهو يصبو إليه بكلّ قلبه، وكلّ فكره، وكلّ روحه. وذلك ما يطلبه بصوت واحد إن هو ضاع في الآذان المحشوّة بثرثرة الثرثارين فهو جليّ وقويّ في الآذان التي تعرف كيف تصغي إلى ما في أعماق البشريّة لا إلى زبد على سطحها.

ومَن ذا سيقود العالم إلى إيمانه الضائع؟

إنّي أُسائل نفسي عن هذا الشرق الذي كان منبع الإيمان – أين أُذنه اليوم، وماذا يسمع، وماذا يقول، وأين صوته في صوت العالم؟ ولو صدّقتُ عيني لا غير لقلت إنّه خشبة لا سفينة، تتقاذفها شتّى التيّارات العالميّة، ولن يكون لها من شأن في خضمِّ الأهواء المسيطرة اليوم أكثر ممّا يكون لخشبة في عرض اليمّ. ولو صدّقت ما يقوله هذا الشرق بلسان زعمائه والذين يزعمون أنهم زعماؤه لخجلت به وبكيت عليه.

إلّا أنّ في قرارة نفسي إيمانًا وطيدًا بأنّ الشرق ما أضاع إيمانه، وأنّ جراثيم إيمانه ما تزال حيّة في تربة روحه رغم جميع ما تسرّب إلى تلك التربة من فساد، وأنّها لا يمضي طويل زمان حتّى تنبت فتورق وتزهر وتثمر من جديد. وسيكون لثمرها طعم ما كان له من قبل. وسيأكل الناس منه ويفرحون.

لقد سئمت القافلة البشريّة أصوات حداة ما برحوا يقودونها من حفرة إلى حفرة، ومن مأزق إلى مأزق. وحاجتها اليوم إلى حداة أنبياء يسيرون بها لا على صوت المدفع بل على صوت الحقّ، وفي طريق المحبّة لا في مهاوي الضغائن، وعلى نور وجه الله لا على بريق وجه الفلس. أفليس هذا الشرق بسامع ما نقول؟

لست أخجل بالشرق يأكل خبزه على صينيّة ضفرتها يده من سنابل أنبتتها تربته. وأخجل به يحتسي الهوان بملاعق الجشعاء على موائد الجشعاء.

لست أخجل بالشرق فارغ الجيب ضامر البطن. وأخجل به فارغ القلب ضامر الإيمان.

لست أخجل بالشرق لا يسبق الغرب إلى محق الناس والبهائم الآمنين بقذائف جهنميّة يمطرهم إيّاها من الجوّ وأخجل به يخجل بتقصيره عن الغرب في ذلك المضمار.

لست أخجل بالشرق لا جيوش له ولا أساطيل. وأخجل به يحسب القوّة في الجيوش، والمجد في الأساطيل، والحقّ في القوّة.

ما كان أضعف موسى في حضرة فرعون. لكنّ فرعون راح، ومعه جيوشه ومركباته. أمّا نور موسى فما يزال يشعّ من أعالي طور سينا. ذاك لأنّ إيمان موسى بنفسه وبيهوه كان أقوى من جيوش فرعون.

ما كان أضعف ابن مريم إزاء بيلاطس ودولة بيلاطس. لكنّ بيلاطس باد، ودولته تلاشت كغيمة في السماء. أمّا ابن مريم فحيٌّ، ودولته ما دالت ولن تدول. ذاك لأنّ إيمان ابن مريم بنفسه وبأبيه

الذي في السموات كان أقوى من رومة وجحافل رومة.

ما كان أضعف يتيم قريش تجاه سادة قريش. وها هي رسالته ما تزال ماشية في الأرض. فأين قريش وسادة قريش؟ ذاك لأنّ إيمان يتيم قريش بنفسه وبربّه الرحمن الرحيم كان أقوى من سلطان كلّ قريش.

إنّي أضنّ بهذا الشرق يستجدي الحياة والحريّة من دولة أو من إنسان. وشآبيب الحريّة والحياة والطهر والجمال تتدفّق عليه في كلّ لحظة من يد الله السخيّة.

إنّي أضنّ بهذا الشرق يفتح قلبه للذلّ ويوصده دون هيبة جباله وبحاره وصحاريه.

وإنّي أضنّ بهذا الشرق يضيّع إيمانه في تيّار مدنيّة لا إيمان لها. وليس يعزّيني عن قلّة إيمانه كثرة معابده وشيوخه وكهّانه. فالدين كنز في القلب لا تسبيحة على الشفاه، أو تأدية فرض محتوم في مكان معلوم. إنّه لشهادة صامتة في أعمق أعماق الروح بأنّ مصدر الحياة واحد ومرجعها واحد. من أدّى مثل هذه الشهادة كان بعيدًا عن كلّ تفرقة ونزاع. فلا وضيع عنده ولا رفيع. ولا سيّد ومسود. ولا غريب وقريب. بل الكلّ وحدة متماسكة بسحر المحبّة، مسربلة بنور الحقّ، مضمّخة بعطر الجمال.

وأنا أودّ من صميم قلبي لهذا الشرق أن يؤدي مثل هذه الشهادة. وأن أراه – وهو أوّل من أدرك قوّة الإيمان – يحمل من جديد رسالة الإيمان إلى العالم. وأن يسمع العالم في صوته صوت الإنسانيّة المعذَّبة بأصوات «مهندسيها» والمنكوبة بجلبة «بنّائيها» – صوت أشواقها الأبديّة إلى الانفلات من الحدود، والانعتاق من السدود، والحظوة بجمال الحريّة التي لا تَستعبِد، والعدل الذي لا يَظلم.

قد يكون من المجد لهذا الشرق أن يصبح دولة مترامية الأطراف، مهيبة الجانب، نافذة الكلمة. لكنّه مجد باطل. أمّا المجد الذي أتمنّاه لهذا الشرق العَبِق بالسلام فهو أن تطفح قلوب بنيه بزيت السلام وتفيض على العالم الصاخب من حوله.

والعظمة التي أترجّاها لهذا الشرق الجميل هي أن يشعّ منه جمال الإيمان الصحيح على العالم الهارب سراعًا من ربّ الحياة إلى شياطين الموت.

والمأثرة التي أتوخّاها لهذا الشرق الحصين هي أن يصبح حصنًا للدين الذي يبتدئ بالله وينتهي بالله – دين الأخوّة الصادقة والأبوّة المتفانية. دين المحبّة الشاملة.

مهمَاز البقاء

بين المهد واللحد فسحة من الزمان ندعوها العمر. وهي لو قيست بمدى الآزال والآباد لبدت لمحة لا غير. ولكن يا لها من لمحة حشرت فيها الحياة كلّ الزمان وكلّ المكان، ولوّنتها بجميع ألوان المشاعر والأفكار: من الغبطة التي لا توصف إلى الألم الذي لا يُطاق. ومن المعرفة المطمئنّة الصامتة إلى الجهل المذعور المهذار. وقد جعلتها الحياة حركة لا تعرف السكون، فكأنّها الدولاب ما ينفكّ يدور على محور واحد سرمديّ. أمّا المحور فالقدرة المبدعة أو الله. وأمّا المحرّك فالجوع والعطش، والاثنان توأمان لا ينفصلان.

يولد الطفل وبه جوع صارخ إلى ثدي أُمّه. ثمّ يشبُّ ويشيب ويموت وبه جوع أخرس إلى ثدي البقاء. فالجوع هو الفاتحة، والجوع هو الخاتمة. وبين الفاتحة والخاتمة جوع ينتهي إلى جوع، وعطش يفضي إلى عطش؛ إذ إنّ لنا في كلّ لحظة من وجودنا أُمورًا تجذبنا وأُمورًا تدفعنا؛ أُمورًا نرغب فيها وأُخرى نرغب عنها. حتّى كأنّ ثواني العمر مهاميز تهمزنا أبدًا إلى حيث ندري ولا ندري. فلا نستريح إلّا لنتعب، ولا نشبع إلّا لنجوع، ولا نرتوي إلّا لنعطش.

هكذا تتوالد الأفكار من الأفكار بغير انقطاع؛ وبغير انقطاع تتدافع قطرات الماء في الجدول الجاري. وهكذا تتناسل الشهوات من الشهوات وتتزاحم في القلب تزاحم الشرار من النار. وهكذا تتسابق كريّات الدم في العروق تسابق النحل في خليّته إلى العمل. فالفكر في جوع دائم، والقلب في عطش أبديّ، والدم في دأب مستمرّ لسدّ حاجات الفكر والقلب والجسد.

هو الجوع وتوأمه العطش يدفعان بنا أبدًا إلى السعي والحركة. ولكنهما أصناف ومراتب. أدناها الجوع إلى الخبز والعطش إلى الماء، وأسماها الجوع إلى المعرفة التي لا جوع بعدها. والعطش إلى الحريّة التي ينتهي عندها كلّ عطش. وبين هاتين المرتبتين ضروب من الجوع والعطش لا تقع تحت حصر، كالجوع إلى اللذّات الجسديّة بأنواعها، وكالعطش إلى الجاه والسؤدد والجمال والمعرفة والسعادة وسواها. وهذه الأنواع من الجوع الذي لا يشبع، والعطش الذي لا يرتوي هي

التي أوحت التشاؤم إلى المتشائمين، إذ بدت لهم الحياة حلقة مفرغة من السعي الذي لا ينتهي إلى هدف ثابت، والتعب الذي لا تعقبه راحة دائمة. وهي التي حملت ضرير المعرّة على قول بيته المشهور:

«تعبٌ كلّها الحياة فما أعـ / ـجب إلّا من راغب في ازدياد»

ذاك لأنّ المعرّي وزملاءه في التشاؤم جعلوا للحياة بداية ونهاية، ثمّ رأوها تبتدئ بالجوع وتنتهي بالجوع فقالوا: «وأيّ خير في حياة أوّلها جوع وآخرها جوع؟» وهو قول لا مردّ عليه إلّا إذا انعتق الخيال من ربقة البدايات والنهايات فأبصر في الولادة والموت مرحلتين من مراحل عمر طوله طول الزمان؛ وإلّا إذا أفلت الفكر من قيود اللحم والدم فأدرك قصد الحياة من جعلها الجوع مهمازًا يهمز الأحياء على الدأب والتفتيش والتعلّق بالبقاء.

لو أنّ القدرة المبدعة أوجدت الجوع والعطش من غير أن توجد لهما الغذاء والريّ لحقّ لنا أن ننعتها بأشنع نعوت الظلم والقسوة والاستبداد. فهل أفظع من أن تخلق حيوانًا وتجهّزه بجهاز خاصّ لأكل العشب وشرب الماء من غير أن تخلق له عشبًا وماء؟ وإذ ذاك فالكفر بالحياة أَوْلى من الإيمان بها.

ولكنّ الحكمة الأزليّة أعدل من أن تظلم، وأحنّ من أن تقسو، وأنبل من أن تستبدّ. فهي ما جعلت حيًّا من الأحياء يجوع أو يعطش إلّا خلقت له ما يسدّ به جوعه ويطفئ عطشه. فالأرض والسماء بما فيهما ومن فيهما موائد مثقلة بأصناف الغذاء والريّ لكلّ ما في السماء وعلى الأرض. والكائنات من منظورها ومستورها تعيش ويغتذي بعضها ببعض؛ فكأنّها خزّانات يملأ بعضها بعضًا بغير انقطاع، فلا هي تفيض يومًا ولا هي تفرغ لحظة. إذ ليس في مستطاع أيّ مخلوق أن يأخذ من ماديّات الكون أو معنويّاته إلّا على قدر ما يعطي، سواء في ذلك الجماد والنبات، والحيوان والإنسان. ونحن لو كانت لنا مقاييس دقيقة إلى أقصى درجات الدقّة لأدركنا أيّ عدل لا يوصف هو عدل السماء والأرض.

فما دام لكلّ جوع غذاء ولكلّ عطش ري؛ أفليس في ذلك دليل على أنّ الجوع الذي ينتهي بنا إلى حافّة القبر لا بدّ له، مهما يكن نوعه، من غذاء عبر حافة القبر؟

ومن ذا يستطيع الجزم بأنّ حافة القبر هي الحدّ الفاصل بين البقاء والفناء، وأنّ الموت هو نهاية الحياة؟ بل من ذا يستطيع القول بأنّ القدرة التي أوجدتنا قد سلطت علينا الجوع والعطش لتجعلنا عبيدًا أذلّاء لهما، ولتلهو بآلامنا وأحزاننا لا لتسلّطنا في النهاية عليهما ولتمحو آلامنا وأحزاننا؟

من منّا لم يقل يومًا في سرّه أو في علانيته: «ليتنا نغلب الموت وليتنا نحيا حياة كلّها سلام، وكلّها عدل، وكلّها جمال وطمأنينة، وليتنا نعرف كلّ ما نجهل»؟

إنّ في قولنا ذلك لدليلًا على جوعنا إلى البقاء وإلى السلام والعدل والجمال والطمأنينة وإلى المعرفة الكاملة. وإنّ في جوعنا ذاك لدليلًا على أن الغذاء موفور لدينا. فما علينا إلّا أن نفتّش عنه بكلّ قوانا. أمّا أنّ الوصول إليه لا يتمّ لنا في خلال عمر واحد ففي ذلك وحده كفيل بأنّ العمر ليس الحياة، بل مرحلة من مراحل الحياة، وأنّ التفتيش لن ينتهي إلّا بالوصول إلى المعرفة – معرفة الله. ومعرفة الله هي الخبز والشراب اللذان يفنى فيهما كلّ جوع وعطش. وهي التربة التي لا تنبت فيها بذور الحزن ولا تتأصّل جذور الألم.

تلك هي مشيئة الله منّا – وما أحكمها مشيئة. أن نبدأ الحياة بالجوع إلى الخبز وأن نختمها بالجوع إلى معرفة الحقّ الذي يحرّرنا من كلّ جوع. وتلك هي حكمة الحياة فينا – وما أعدلها حكمة. أن تجعل من الجوع مهمازًا يدفع بنا أبدًا إلى التفتيش عن الغذاء الذي لا جوع بعده. وأن تجعل كلّ ما في الكون مائدة لنا وتجعلنا موائد لكل ما في الكون. ثمّ أن تجعلنا معلّمين لكل ما في الكون وتجعل كلّ ما في الكون معلّمًا لنا. أمّا أنّنا ضيوف ومضيفون، وتلاميذ ومعلّمون في آن معًا فما ذاك من المجاز في شيء.

من منّا إذا عنّ له يومًا أن يحلّل نفسه نظير ما يحلّل الكيميائيّ مركّبًا كيميائيًّا تمكّن من أن يردّ اعصابه وعظامه ولحمه ودمه إلى مصادرها؟ أليست أجسادنا تتكوّن من جسد الكون وتتغذّى به لتعود فتساعد في تكوينه وتغذيته؟ فمثلما نجوع إلى أشياء وأشياء تجوع إلينا أشياء وأشياء. فنحن أبدًا جائعون ومجيعون، وآكلون ومأكولون. فهنيئًا لمن كان طعامًا صالحًا للغير كيما يكون الغير طعامًا صالحًا له. والويل لمن كان للغير سمًّا زعافًا، فهو من حيث لا يدري، يسمّم طعامه بيده.

ثمّ من منّا يستطيع أن يردّ أخلاقه وأفكاره ونزعاته وشهواته إلى مصادرها؟ أنعرف أيّ أثر في كياننا لأغاريد العصافير وصرير الجنادب وهدير العواصف؟ أم نعرف ماذا قرأنا ونقرأ في صحيفة البحر والصحراء، وفي جبهة الجلمود والعشبة الخضراء؟ أم نذكر كلّ ما تذيعه لنا الشمس والقمر والنجوم وما تهمسه في آذاننا سكينة الليل؟ أم ندرك ما رسب في أعماقنا من قراءة هذا الكتاب أو ذاك؟ لَكَم نخاطب الأموات ويخاطبوننا ولكَم نصادق ونعادي من الأحياء. أفبعد هذا يقول قائل إنّ معلّميه فلان وفلان لا غير، وإنّ مدرسته هي مدرسة كيت وكيت؟

إنّما الكون بكل ما فيه مدرسة الإنسان. وإنّما كلّ ما في الكون معلّم للإنسان. وإنّما العمر من أوّله إلى آخره دراسة متواصلة. والجوع هو الحافز الأبديّ للدرس والاستطلاع. فماذا عسى الناس يبتغون من مدرستهم ومعلّميهم؟ أيبتغون شهادات تخوّلهم تبذير خيرات الأرض كما يشاؤون، بينا جارهم ينام على الطوى ويفترش التراب ويلتحف الأسمال؟ أم يبتغون أن تكون لهم القصور والخدم والرتب الرفيعة والألقاب الطنّانة، وأن يسجد لهم أذلّاء النفوس، ويمجّدهم صغار القلوب،

ويستعطفهم سخفاء العقول؛ وأن يبقوا، مع ذلك، نهبًا لأخسّ أصناف الجوع والعطش؟ إنّهم لا شكّ خاسرون.

ولو أنّهم أحسنوا الدراسة لفقهوا أنّها وإن ابتدأت بالجوع إلى الخبز، والعطش إلى الماء، ثمّ تدرّجت بهم إلى كلّ أصناف الجوع والعطش، فغايتها الوصول بهم إلى الطعام الذي إن شبعوا منه مرة لبثوا شباعًا إلى الأبد، وإلى الشراب الذي إن ارتووا منه مرّة ما عطشوا من بعدها إلى الأبد.

أجل! مدرسة هو الكون. وما الأعمار نطويها بين المهد واللحد غير صفوف فيها. أمّا الحافز الأكبر للدرس فالجوع. وأمّا الغاية من الدرس فأن نتعلّم كيف نضيف ونضاف، وكيف نعلّم ونتعلّم، وكيف نخلص من الجوع الذي لا يشبع إلى الشبع الذي لا يجوع.

فنحن إذ نكون ضيوفًا على الكون علينا أن نتقيّد بحشمة الضيف، فلا نتناول ممّا على المائدة فوق حاجتنا، ولا نتلف شيئًا منه، ولا نسرق، ولا نخبّئ في جيوبنا، ولا نسابق غيرنا من الضيوف إلى الطعام الأشهى والشراب الأمرأ، ولا نتنازع على هذا الصنف أو ذاك. وإذ نكون مضيفين علينا أن نحسن الضيافة. فنبذل لضيوفنا بسخاء من أجود ما عندنا. ولا نتبجّح، ولا نمنّ، ولا ندسّ السمّ في الدسم، ولا نقدّم للواحد أفضل ممّا للآخر أو أقلّ منه.

ونحن إذ نكون تلاميذ لا يليق بنا أن نستخفّ بمعلّمينا، سواء أكان معلمنا رتيلاء أم كوكبًا في الفضاء. وإذ نكون معلّمين يجدر بنا أن نصرف من عنايتنا ومحبتنا للتلميذ الفقير والبليد نظير ما نصرفه للغنيّ والنبيه. سواء أكان تلميذنا حمّالًا في السوق أم عظيمًا من عظماء الدولة.

ذلك هو العدل الذي نبتغيه من الغير، والذي يبتغيه الغير منّا. ثمّ ذلك هو الطريق المؤدّي بنا من المجاعات التي لا نهاية لها إلى الجوع الأعظم والأخير – الجوع المقدّس إلى خبز المعرفة الكاملة – معرفة الله.

الحربُ وَسنّ الرشد

انتهت الحرب وكأنّها لم تنته. فهي ما تزال على كلّ شفة ولسان. والناس ما يبرحون يتساءلون: لماذا تنشب الحروب؟ وهل الحرب ضربة لازب في حياة البشريّة؟

فمن قائل إنّ الحروب تثيرها الفوارق الجنسيّة والدينيّة. ومن قائل إنّ شهوة السلطان والمجد هي الدافع الأقوى والأهمّ. ومنهم من يحصر الأسباب كلّها في العوامل الاقتصاديّة لا غير. وهناك من لا يحاول ردّ الحروب إلى سبب واحد أو مجموعة من الأسباب، بل يقول إنّ الحرب من طبيعة الإنسان مثلما هو الأكل والشرب والتنفّس والتناسل. وإنّها، فوق ذلك، قانون من قوانين الطبيعة لا مناص للإنسان من الامتثال له مهما تسامت مداركه ومشاعره. فها هي الأجرام السماويّة لا تنفكُّ في تدافع وتجاذب. وها هي نباتات الأرض، وأسماك البحار، ومجنّحات الجوّ، وحشرات التراب، وضواري الغابات، وباقي الحيوانات – ومنها الإنسان – في نزاع أبديّ من أجل البقاء. فالإنسان، من هذا القبيل، لا يخرج في نظر أصحاب هذا المذهب عن كونه حيوانًا كسائر الحيوان.

أمّا جوابي فهو أن الحرب ستلازم الإنسانيّة ما دامت الإنسانيّة بمجموعها – لا بأنبيائها وأوليائها – دون سن الرشد. وهو جواب يحتاج، من غير شك، إلى التبسّط والتفسير.

من البديهيّ أنّ سنّ الرشد للإنسانيّة التي لا يقاس عمرها بعقود العقود ولا بأجيال الأجيال هي غيرها للإنسان الواحد الذي لا يتعدّى معدّل عمره الأربعين – أو الخمسين – من السنين.

ما هي بالمصادفة العمياء أن يتّفق الناس من أقدم الأزمان وفي كلّ مكان على مرحلة محدودة من العمر إذا ما اجتازها الإنسان قالوا إنّه بلغ سنّ الرشد. وما دام دونها دام في عرفهم قاصرًا. بل إنّ في ذلك حكمة زمنيّة فرضتها تجارب الحياة فرضًا. فلا مناص منها على الإطلاق في تصريف شؤون المعيشة. ذاك لأنّ حياة البشريّة – حياة الإنسان تجاه غيره من الناس – تنطوي على الكثير من الواجبات والحقوق التي خلقتها الضرورة. فالرشد، من هذا القبيل، إنّما هو المقدرة على تفهُّم تلك الواجبات والحقوق والاضطلاع بها. والقصور هو العجز عن ذلك. فلا الرشد رشد مطلق. ولا

القصور قصور مطلق. بل هما رشد وقصور بالنسبة إلى هدف قريب المنال هو القيام بأعباء المعيشة في خلال فترة قصيرة من الزمن ندعوها العمر.

ذلك هو الاصطلاح الشائع بين الناس بشأن سنّ الرشد. وهو اصطلاح، كما ترون، حكيم. أفما يحقّ لنا بالمقارنة ما بين عمر الإنسان الواحد وعمر الإنسانيّة الشاملة، وبين أهدافه وأهدافها، أن نخلص ولو بالتقريب، إلى الحكم في ما إذا كانت الإنسانيّة قد بلغت سنّ رشدها أو لم تبلغها بعد؟

قلت إنّ سنّ الرشد للفرد قد حدّدتها خبرة الناس بالنسبة إلى أهداف المعيشة المحدودة. وسنّ الرشد هذه تكاد تبلغ نصف عمر الفرد إذا ما اعتبرنا معدّل العمر أربعين عامًا أو أكثر بقليل. فكيف لنا أن نعرف سنّ رشد الإنسانيّة إلّا إذا عرفنا عمرها؟ وكيف لنا أن نعرف عمرها إلّا إذا عرفنا هدفها – أو أهدافها – من وجودها؟ فما دام للعمر هدف، كان لا بدّ للعمر أن يطول حتّى يدرك ذلك الهدف. فهل للإنسانيّة من هدف؟ وما هو؟

لست أجهل أنّ في الناس من ينفي وجود أيّة غاية لأيّ شيء. فالكون في نظرهم ليس أكثر من قوى طائشة تتفاعل على غير هدى ولغير ما مقصد من المقاصد. والعجب من أمر هؤلاء أنّ لهم في كلّ ساعة، بل في كلّ لحظة، من حياتهم غاية يسعون إليها، وأنّهم مع ذلك، لا يرون غاية لوجودهم أو لوجود شيء في الكون. ثمّ إنّهم، كيفما انقلبوا، أبصروا كائنات لا تُحصى يجدّ كلّ منها في سبيل الوصول إلى حاجة من الحاجات أو هدف من الأهداف. سواء في ذلك النملة والجمل والحرباء والإنسان.

إن يكن عالمنا عالم غايات في جزئياته، أفيصحّ أن يكون عالمًا لا غائيًّا في كلّيّاته؟

إمّا أن يكون عالمنا عالمًا موزونًا يتمشّى على سنن محدودة لغاية محدودة، وإذ ذاك تحتّم علينا أن نعرف سننه وغاياته لنسير معه لا ضده، فنكمل باكتماله وندرك غايتنا في غايته. وإمّا أن يكون طائشًا لا تربطه سنّة ولا تحدوه غاية. وإذ ذاك فأيّ بأس علينا لو كنّا طائشين في عالم طائش، فعشنا وما درينا لماذا نعيش، ومتنا جاهلين لماذا نموت؛ وحاربنا وسالمنا وتناسلنا من غير أن نعرف لماذا نحارب ونسالم ونتناسل؟ وأيّ معنى لكلّ ما نعمل ونقول، ولذلك الصراع الهائل الذي مايفتأ الإنسان يخوض غماره، ولتلك الآلام المبرّحة التي ما تنفكّ تشويه في صراعه؟

لا. لا. إنّ للكون غاية إذا نحن جهلناها فليس يجهلها الكون. وإنّ للإنسانيّة هدفًا تدلّكم عليه أشواق الإنسانيّة مثلما يدلّكم الدخان على النار، والنور على الشمس، وظلّ الشجرة على الشجرة.

أمن الممكن أن نشتاق شيئًا لا وجود له؟ إنّ في الشوق وحده لدليلًا قاطعًا على وجود ما نشتاقه. فنحن ما كنا لنجوع لولا وجود ما يؤكل ولولا مقدرة فينا على أكله؛ ولا لنعطش لولا وجود ما يروي؛ ولا لنحب لولا وجود ما يُحَبّ؛ ولا لنعرف لولا وجود ما يُعرَف. ونحن ما كنّا لنحسّ شوقًا نهّاشًا إلى معرفة كلّ ما في الكون لولا قدرة كامنة فينا على تلك المعرفة.

كذلك شوقنا إلى الحرّية المثلى وهي التسلّط على كلّ ما فينا وفي الأكوان حوالينا من قوى نغالبها وما تزال تغلبنا. ولكن في عدم تسليمنا لها، وفي ثباتنا الرائع في الميدان، دليلًا ناصعًا على وجود القوة الكافية فينا للتغلّب عليها في النهاية.

وإذًا فهدف الإنسانيّة من وجودها هو معرفة كلّ شيء والقدرة على كلّ شيء. فأين إنسانيّة اليوم من ذلك الهدف؟

ليس من يعرف طول الشقة من الزمان التي قطعتها البشريّة حتّى اليوم. والذي نعرفه هو أنّ البشريّة قد تعبت في خلالها كثيرًا، وتألمت كثيرًا، وفكّرت كثيرًا. فاكتشفت أشياء واخترعت أشياء، وتمكّنت من تنظيم ما عرفته واكتشفته واخترعته تنظيمًا تغالي به كلّ المغالاة، وتحرص عليه حرصها على كنز ثمين، وتدعو ذلك الكنز «الحضارة» ولكنّها، بالنسبة إلى هدفها الأبعد والأسمى، ما تزال في أوّل الطريق. فالذي عرفته حتّى الآن ليس سوى قطرة من بحرٍ ما لا تعرفه. والذي تتحكّم فيه هو حفنة من طود من القوى التي ما تبرح متحكّمة فيها. فما أبعدها بعدُ عن سنّ الرشد.

إنّ أقلّ ما تفرضه سنّ الرشد على الذين يبلغونها هو معرفة ما عليهم من واجبات وما لهم من حقوق تجاه أنفسهم وتجاه المجموع. ولو أنّ الإنسانيّة بلغت الرشد لعرفت هدفها وما يحتّمه عليها من واجبات ويعطيها من حقوق. وإذ ذاك لانصرفت إليه بكل قواها. فكانت يدًا واحدة وإرادة واحدة. إلّا أنّها ما تزال دون سنّ الرشد بكثير. فشأنها مع نفسها ومع الأكوان من حولها شأن الأولاد الصغار يتقاتلون من أجل خرزة حمراء أو زرقاء، ومن أجل دوّامة أو دمية، ومن أجل حركة أو كلمة، ثمّ يعودون فيتحالفون على هدم عشّ عصفور واقتسام الفراخ التي فيه، أو على سرقة عنقود من كرم جارهم.

لا فرق بين حروب عصابات من الأولاد وبين حروب عصابات من الأمم إلّا في المدى. أمّا الذهنية التي تتولّد منها تلك وهذه فواحدة. هي ذهنيّة المنافسات العرقيّة والدينيّة واللّغويّة والسياسيّة؛ ذهنيّة السلطة الجاهلة أنّ فوق كلّ سلطة سلطات؛ ذهنيّة المالك لا يفقه أنّه مملوك ما يملك. هي ذهنيّة تتوهّم خيرها في شرّ غيرها، وهناءها في شقاء سواها، وقوّتها في ضعف جارها. ولا يخطر لها ببال أنّ شر جارها وشقاءه وضعفه هي شرّها وشقاؤها وضعفها. وبالإجمال هي ذهنيّة الولد ما بلغ سنّ الرشد. فلا هدف له من وجوده غير إرضاء شهواته ونزعاته الفرديّة مهما تكن خسيسة وبعيدة عن شرف الرجولة وإباء المعرفة.

ما دامت الإنسانيّة دون سنّ الرشد دامت في غفلة عن هدفها الأسمى، تتنازعها غايات مبلبلة، مشوّشة، كلّما بلغت حدّ الفوران تأجّجت من جرّائها نيران الحروب. ثمّ تهمد فترة من الزمن فيكون سلم. ولكنّه سلم مدجّج بالسلاح. وللسلم سلاح غير المدفع والدبّابة والغوّاصة. هو سلاح النكايات

والسعايات والحقد والحسد والنميمة والبغض. وما أفظعه وأشدّه فتكًا من سلاح! فكأنّ الناس مقضيّ عليهم بأن يمزّقوا الغشاوات التي على عيونهم بأيديهم، وأن يشتروا المعرفة بالألم، وألّا يبصروا نور الرشد إلّا بعد التخبط الطويل في دياجير القصور. ولا عجب، فالفرخ لا يستطيع الخروج من بيضته إلّا بكسرها.

قلوبُ الوالِدات

ماتت التي ولدتني، والموت يطوي الكلّ – حتّى الوالدات.

ماتت وفي لحمي وعظمي ودمي بقايا حيّة من لحمها ومن عظمها ومن دمها؛ وفي القلب من أنباضها أنباض، وفي الصّدر من أنفاسها أنفاس. أمّا كُوّنتُ جسمًا حيًّا في جسمها ومن جسمها الحيّ؟ فكأنّ بعضي مات بموتها. وكأنّ بعضها ما يزال حيًّا في حياتي. فكلانا ميت، وكلانا حيّ.

ولم أكُ جاهلًا أنّ التي ولدتني ستموت يومًا ما. فما هالني، وأنا بجانب سريرها، أن أُحسّ يدها تتثلّج وتيبس في يدي – فلا نبض ولا حرارة. ولا هالني أن أخاطبها فلا تجيب. أو أنّني سأعيش ما تبقّى لي من العيش فلا أسمعها تناديني «يا ابني» ولا أُبصرها ترسل خلسة نظراتها الملهوفة إلى وجهي لتعرف أفي عافية أنا وفي سلام، ولا آكل الزاد وقد باركته، ولو باللمس، يداها اللّتان يعلم الله وحده كم أعدّتا من الزاد طيلة أمومتها الطويلة.

لا. ما هالني أن أرى التي ولدتني هيكلًا مهجورًا، وأمس كان يعجّ بالعبادة والعابديّن. ومذبحًا قفرًا، وكان حتّى سويعات قليلات عامرًا بالنار والنور، وبالصلوات والقرابين. ولقد هالني أن أتمثّل جميع الوالدات في والدتي، ومن ثمّ أن أفكّر في تلك العضلة البيضويّة الشكل، الحمراء اللون، التي ندعوها القلب – ما أسعدها في صدور الوالدات وأشقاها، وما أبسطها وأدهاها، وما أشحّها وأسخاها، وما أصلبها وأطراها، وما أضعفها وأقواها...

كل القلوب عجيب ورائع وغريب. ولكنّ أعجبها وأروعها وأغربها من غير شك قلوب الوالدات. فما إن يزحل ولد عن قلب والدة حتّى تصبح الوالدة ولها قلبان وجسدان وحياتان. وتتعدّد المواليد فإذا الوالدة ذات قلوب وأجساد وحيوات عدّة. فكأنّها شجرة التين الهنديّ التي ما إن يتدلّى غصن من أغصانها إلى الأرض فيلمس التراب حتّى يتّخذ له جذورًا وينمو شجرة مستقلّة في الظاهر بساقها وفروعها وأغصانها عن ساق أمّها وفروعها وأغصانها. أمّا في الواقع فمتّصلة بها أوثق الاتّصال.

أما تسمعون الوالدات يتحبّبن إلى أولادهنّ بمثل هذه الكلمات: «يا قلبي. ويا روحي. ويا عيني. ويا عظامي» وما شاكلها؟ ما ذاك من المجاز في شيء. إن هو إلّا الحقيقة العارية عن أي زخرف ومبالغة. فقلب الولد قلب الوالدة، وعينه عينها، وروحه روحها، وعظامه عظامها. ومن هنا كانت لهفتها العظيمة عليه – تلك اللهفة التي لا يندر أن تبلغ حدّ نكران الذات، وبذلها بسخاء لا يقيم وزنًا لألم مهما اشتدّ. حتّى ولا للموت.

فما مسّ ولدًا ضرّ إلّا مسّ والدته أضعافه. ولا سالت من عروقه قطرة دم إلّا تفجّرت لها من قلبها قطرات. ولا اكمدّ في عينه نهار إلا أظلمت في عينها شموس. ولا غاب عن أبصارها إلّا وزّعت نفسها حرّاسًا يسهرون على سلامته، وصلوات تدرأ عنه السوء وتسدّد خطاه إلى الفلاح وإلى العشّ الذي منه طار وعنه اغترب. وأمّا إذا اختاره الموت ولفّته ظلمة الرمس فما من خطيب ولا عالم ولا ساحر يستطيع أن يصف لكم ولو ميتة واحدة من الميتات التي تموتها والدة فُجعت بقلب من قلوبها.

يا ليته كان لي ولكم أن نستنطق الأرض وكلّ ما عليها، والسماء وكلّ ما فيها، والهواء وكلّ ما انطوى عليه، عن كلّ ما اختلجت به قلوب الوالدات منذ أوّل والدة حتّى اليوم. إذًا لصعقنا نحن البنين بما كانت تذيعه لنا الأكوان عن عقوقنا وتفاني والدتنا من أجلنا. وعن بقائنا فيهنّ وفنائهنّ فينا. فما من هلال أهلّ، ولا نجم أطلّ، ولا شمس بزغت، ولا نسمة هبّت، ولا سحابة عدت إلّا توجّهت إليها آلاف القلوب من آلاف الوالدات راجية أن تحمل لأبنائهنّ العافية والسعد والبركات، وأن تدرأ عنهم كلّ سوء من أيّ نوع كان. أمّا ظلمات اللّيالي الحالكات – وأمّا وسادات الوالدات وفرشهنّ فمن ذا يعرف بعض ما في طيّاتها من هناء وأرق، وطمأنينة وقلق، ودموع حمراء، ونفثات حرّاء، وآمال ملتاعة، ولوعات مؤمّلة، وموت بطيء، وشهدٍ فيه علقم؟

أتسمعون بحرب ما فتقولون: هي حرب شنها الرجال على الرجال فلا تغتال غير الرجال؟ إنّها لحرب شنّها البنون على الوالدات وأوّل من تغتاله الوالدات. فقلوبهنّ أبدًا في ساحات القتال: هنا تمزّقها الشظايا، وهناك تشويها النيران، وهنالك تسحنها الدواليب، أو تلفحها السمائم، أو تتناتشها الأسماك، أو يفتّتها الجليد. هي في المعتقلات مع المعتقلين، وفي المستشفيات مع المتألّمين، وفي الجوّ وفي البحر تغالب الأنواء والأمواج مع الطيّارين والبحّارين.

وتستريح رحى الحرب، فإذا بقلوب الوالدات مقابر يغسلها أبدًا دمٌ سخين حزين. أو هي ملاجئ للمعتوهين، ومأوٍ للمشوَّهين، أو شباك من خيوط العنكبوت يلفّ بها حنين الوالدات أولئك من أبنائهنّ الذين كُتبت لهم السلامة – يلفّهم بها صونًا لهم من عاديات السّنين.

لهف قلبي على قلوب الوالدات. ما زارها الفرح يومًا إلا وشبح الخوف من سريع ارتحاله يقنّع وجهه وينغّص عليه إقامته. أمّا الحزن فما دخل قلب والدة ثمّ استطال الإقامة فارتحل. فهو قد

يختبئ حينًا، أو يتدثّر بدثار من النسيان. لكنّه يعود من غير أقلّ إنذار أو تنبيه فيخرج من مخادعه، ويلقي عنه دثاره، ويحتلّ صدر المجلس من جديد.

لهف قلبي على الوالدات. فهنّ يعشن أعمارًا عدّة في عمر واحد. وعمر واحد نحياه ولا نستطيع أن نسيّره حسبما نشاء، لَمحنة وأيّة محنة فكيف بمن انطوى عمره على أعمار وليس في يده زمامُ ولا واحدٍ منها؟

ههنا مصدر شقاء الوالدات. فهنّ واهمات أبدًا أنّه ما دامت لحوم الأولاد وعظامهم ودماؤهم من لحومهنّ وعظامهنّ ودمائهنّ فحياتهم كذلك حياتهنّ، وهنّ أحقّ بها وبتدبيرها حتّى من الله. والواقع أنّ لا حياتهنّ منهنّ ولا حياة أولادهنّ من حياتهنّ. وليس بين تلك وهذه صلة العلّة بالمعلول، أو السبب بالنتيجة، وإن ربطتهما شركة وثيقة في الاثنين. إلّا أنّ الوهم كان، وما برح، ولن يبرح أجمل شكلًا في عيون الوالدات وأشهى طعمًا في أفواههنّ من حقيقة عارية.

والحقيقة العارية هي أنّ الوالدات لَسْن الينابيع التي منها تتفجّر الحياة، ولكنّهنّ الآنية المقدّسة المعدّة لاقتبال الحياة واحتضانها. هنّ القناة تسيل فيها المياه، ولسن المياه. وهنّ التربة تنبت فيها البذرة، ولسن البذرة. فللولد حياته وللوالدة حياتها. والحياتان تتّصلان حيث يقضي نموّهما بالاتّصال، وتفترقان حيث يقضي نموّهما بالافتراق، ولكنّهما، وإن افترقتا في عالم الظواهر، فهما على اتّصال أبديّ في عالم البواطن، حيث القدرة التي منها كلّ شيء وإليها كلّ شيء، والتي ندعوها الحياة ونجهل ما هي. ولعلّ الأمومة هي الصفّ الأوّل في مدرسة متعدّدة الصفوف يفنى كلّ واحد منها في الذي يليه. إلى أن تبلغ الإنسانيّة الصفّ الأخير حيث يفنى الكلّ في الواحد، ويتّسع الواحد فيشمل الكلّ. وللوالدات المجد في أن يكنّ من الإنسانيّة طليعتها المباركة في طريق نكران الذات: نكران ذاتٍ محدودة للوصول إلى الذات التي لا تُحَدّ.

ألا رفقًا بالوالدات حتّى اللواتي يظهرن للناس ولأولادهنّ كما لو كنّ غير صالحات. أفما كفاهنّ صلاحًا أنّ تختارهنّ الحياة آنية صالحة للحياة؟

إي. رأفة، ثمّ رأفة بقلوب الوالدات!

مَدنيّة العَقل وَمَدنيّة الخيال

في الغرب مدنيّات لا مدنيّة، لكنّها تنضوي كلّها تحت لواء واحد هو العقل. والعقل هو المصباح الذي تسكب فيه الحواس زيوت اختباراتها. فعلى قدر ما تكون تلك الاختبارات غزيرة أو شحيحة يكون مصباح العقل نيرًا أو ضئيلًا، إلّا أنّه – نيرًا كان أم ضئيلًا – لا هداية فيه لمن يطلب الوصول إلى ضمير المحسوسات.

وفي الشرق مدنيّات لا مدنيّة، لكنّها تسير كلّها خلف حادٍ واحد هو الخيال. والخيال هو الشمس التي تنير في طرفة عين ما ليس تنيره ربوات المصابيح في ربوات من السنين، أو هو السلّم السحري الذي نرقى به من المحسوس فينا إلى غير المحسوس. والعقل درجة من درجاته.

إذا ما قلت إنّ مدنيّة الغرب هي مدنيّة العقل فلست أعني أنّها مارقة من الخيال، بل إنّ عقلها يسوق مركبة خيالها. وكذلك عندما أنعت المدنيّة الشرقيّة بمدنيّة الخيال لا أعني أنها طاهرة من العقل بل إن خيالها يقود عقلها.

منذ المقابلة التي جرت بين الحيّة وحواء في جنّة عدن والخيال والعقل يتنازعان قيادة البشريّة. فقد كان من ذلك الحديث القليل الكلام، البعيد الأصداء، الذي دار بين أمّ الإنسانيّة وشيطانها، أن استيقظ الإله الهاجع في حواء، فأدركت أنّ سرّ الألوهيّة في المعرفة – معرفة الخير والشرّ. وبعين خيالها رأت نفسها ورفيقَها آدم إلهين مثيلين ليهوه. ولو أنها وقفت عند ذاك الحدِّ لكان لها ما تخيّلته ولكانت وآدم إلهين قابضين على كلّ أسرار الوجود. غير أنها ما تنبّه الإله فيها – وهو خيالها – حتّى تنبّه معه الإنسان وهو عقلها. والعقل الذي يستمدّ كلّ نوره من الحواسّ الخارجيّة يستحيل عليه أن يسلّم بوجود شيء إلّا إذا خبره بواسطتها. لذلك مدّ يده إلى الثمرة ليتلمّس فيها الله بيديه ويتأمّله بعينيه ويتذوّقه بلسانه ويسحنه بأسنانه ويهضمه في معدته. وإذ أن الله لا يُبصَر ولا يُلمس ولا يؤكل ولا يُهضم، لم يحصل العقل من «اختباره» على شيء إلّا على ذاته. لقد شاء أن يلمس الغبطة القصوى فلم يلمس سوى الوجع الأقصى؛ وأن يبصر المعرفة الوهّاجة فلم يبصر سوى

الجهل الدامس؛ وأن يتذوّق حلاوة الخلود فلم يتذوّق إلّا مرارة الموت. لقد شاء أن يجد الله في الإنسان فلم يجد سوى الإنسان في الله، وأن يعرف بالفناء عدم الفناء فلم يعرف سوى الفناء.

عندما «أكل» الإنسانُ الله أكل الموتُ الإنسان، لأنّه حاول أن يحصر خياله الذي لا يُحَدّ في حظيرة عقله المحدود، فكان كالضّفدع تنتفخ لتزدرد الثور فتنفجر ويبقى الثور حيًّا؛ وكالشمعة تحاول أن تحصر في فتيلتها نور الشمس فتذوب وتظلّ الشمس شمسًا. وسيبقى الإنسان ميتًا بعقله، حيًّا بخياله إلى أن يذعن العقل للخيال.

غير أن العقل عنيد لأنّه جاهل، وليس «يؤمن» بالخيال فينقاد إليه إلّا متى صار الخيال «معقولًا» أي محسوسًا. فما أشبهه من هذا القبيل بتلاميذ الناصريّ الذي كان يحدثهم عن أبيه السماوي فيقولون له: «أرنا الآب»، وعن «ملكوت الله» فيتآمرون فيمن سيكون الوزير الأوّل فيه! بل ما أشبه العقل بذلك التلميذ توما الذي أخبره رفاقه غير مرة عن قيامة معلمهم فظل يجيبهم: «إن لم أعاين أثر المسامير في يديه... وأضع يدي في جنبه لا أؤمن». وما أجمل ما قاله له يسوع: «لأنّك رأيتني يا توما آمنت، طوبَى للذين لم يروا وآمنوا!»

لقد بلغ من عناد العقل وخُيَلائه أنّه أصبح يسخر من الخيال فيدعوه وهمًا ويدعو كلّ ما ليس «ينطبق على العقل» خرافة؛ مع أنّك لو تفقّدت أمنع الحصون التي يلجأ إليها العقل لوجدتها قائمة على الخيال. وأمنع حصونه هي علومه الرياضية. فأنت لو سألت أحد الرياضيّين أن يحدّد لك «الواحد» الذي تبدأ وتنتهي به كلّ الرياضيّات لأجابك بأن لا وجود له إلّا في خيالك. ولو سألت عالمًا في الهندسة أن يدلّك على «النقطة» التي تتكوّن منها الخطوط، ومن الخطوط المقاييس الثلاثة التي نعرفها حتّى الآن – الطول والعرض والعمق – لأجابك بأن لا وجود لها إلّا في خيالك.

ولئن مدّد العقل بصره بالمكروسكوبات والتلسكوبات يظلّ ضريرًا عن كلّ ما لا تبصره غير عين الخيال. ولئن عزّز سمعه بالتليفون والراديو يبقى أطرش عاجزًا عن أن يسمع بأُذن التليفون والراديو ما ليس تسمعه إلّا أُذن الخيال. ولئن اتخذ لرجليه أجنحة من الريح يظلّ مُقعَدًا وقاصرًا عن ارتياد آفاق الوجود التي يرتادها الخيال بلحظة.

يجهل العقل مسالك الخيال فينفر منه. ويعرف الخيال سبل العقل، فيعطف عليه ويماشيه ليقوده إليه. لذلك «يتجسّد» الخيال كيما يجعل من جسده عبّارة للعقل. فما المسكونة بكلّ ما فيها من محسوس سوى أجساد مختلفة للخيال الواحد، وإن شئت فقل هي رموز ذلك الخيال؛ وما القصد منها إلّا مساعدة العقل على التخلّص من ذاته. فإن هو أحسن قراءة الرموز صار خيالًا وتغلّب على الموت والانحلال؛ وإن هو أساء قراءتها فاتخذ الرمز بديلًا من المرموز إليه بقي في قبضة الألم والفناء. لأنّ الرموز تتحوّل وتتبدّل، أمّا الذي ترمز إليه فواحد لا يتغيّر ولا يتحوّل.

لو كان لنا أن نستفتي الناس كلّهم في أيّهما أفضل: العقل أم الخيال؟ لوجدناهم شرقًا وغربًا – ما خلا أفرادًا قلائل – ينتصرون للأوّل دون الثاني. لأنّهم – بقطع النظر عن أجناسهم وطبقاتهم – لا يزالون مقيَّدين بحواسّهم. فهم يفهمون أو يحسبون أنّهم يفهمون «الحجر»، ولكنّك لو قلت لهم إنّ الحجر خيال تجمّد وإنّهم لن يعرفوه حتّى يعرفوا خياله، لظنّوك تكلّم هم بالطلاسم والأحاجي. وهم يعرفون – أو يعتقدون أنهم يعرفون – الله لأنّهم جعلوه إنسانًا على صورتهم ومثالهم. إلّا أنك عندما تقول لهم إن الله خيال مجرَّد مطلق وإنّه تجسّد فيهم لينتهي بهم إليه، يفغرون أفواههم ويحملقون بعيونهم كبدويّ في الصحراء تسأله أن يحدّد لك مبدأ النسبيّة.

لقد تسلّق الشرق بخياله ذرى شاهقة أطلّ منها على الحياة بمجموعها لا بأجزائها، فرآها جميلة بكمالها كاملة بجمالها. ورآها روحًا أو خيالًا واحدًا لا يتجزّأ ولا يتقسم. فعلى طور سينا سمع ذلك الخيال يقول له أن لا حقيقة إلّاه: «أنا هو الربّ إلهك... لا يكن لك إله غيري» وينهاه عن الاستسلام للعقل الذي لا «يؤمن» إلّا بالمحسوسات: «لا تصنع لك تمثالًا ولا صورة ما». وفي «الأوبّانيشاد» الهنديّة، لا سيّما في تلك المحاورة العلويّة التي تدور بين الأمير «أرجونا» والإله «كريشنا» والتي تُعرف باسم «البهاجفاد جيتا» (الجيم مصريّة)، تلمح أعلى قمّة أدركها الخيال إذ رأى الحياة ذاتًا واحدة لا كيان لذات أخرى إلّا فيها ولا وصول لإنسان إليها إلّا بنكران ذاته الحسية المنفردة – وهي عقله – والاعتصام بذاته الكليّة الشاملة – وهي خياله. مثل تلك القمّة تلمحها في كرازة بوذا عن «الذات العالميّة» و«النرفانا». وفيما تبقّى لنا من جولات لاوتسو في عالم «الطاو» و«التيه». وفي بشارة يسوع «بالآب» و«الملكوت». وفي شهادة محمّد بأن «لا إله إلّا الله». وفيما اتّصل بنا من آثار أشور وبابل. وفي ذلك السفر الغريب المعروف «بكتاب الموتى» الذي انتشله العقل الغربيّ المنقّب – وتلك منّة نحمدها له – من بقايا أنقاض المدنيّة المصريّة. وفي الأهرام وأبي الهول، وكلّها رموز الخيال المصريّ إلى الخيال الأعلى (رع). أوَما ترى الأهرام تنتهي كلّها «بنقطة» في الفضاء؟ هي رمز الخيال اللامتناهي. وقواعدها هي العقل وحواسه المؤدّية إلى الخيال. أم لا ترى أبا الهول ونصفه الأوّل حيوان – أو العقل وحواسه – ينتهي برأس إنسان ذي خيال؟ فما بالك تستعظم فكرة جاءك بها في الزمان الأخير رجل غربيّ اسمه دارون وتنسى أبا الهول؟

في ظلال تلك القمم وأخواتها الأصغر منها – التي أدركها عدد كبير من الأنبياء الثانويّين – عاش الشرق أجيالًا طويلة. فكان إذا تطلّع إليها بعين عقله رآها ضبابًا، أو بعين خياله أبصرها شموسًا ملتهبة. غير أنّه – سواء تطلّع إليها بعين عقله أم بعين خياله – كان يشعر أبدًا بهيبتها وجلالها. فإذا ما نسج ثوبًا أو حاك طنفسة أو جَبَل إبريقًا من طين أو نقش رسمًا على لوحة أو في حجر أو نظم قصيدة أو بنى معبدًا أو نظّم مُلكًا ودرّب جيشًا – تسرّب شعوره هذا إلى كلّ أعماله.

فكان – من حيث لا يدري – يعبد خياله بعقله. ومن حيث لا يدري كان يجرّ خياله من شاهق علوه لينزل به إلى مستوى عقله. والخيال لا يُعبد إلّا بالخيال. وهكذا اختلط عليه أمره وأصبحت عبادته مزيجًا غريبًا من عبادة البطن والروح ومجموعة من التقاليد والطقوس والرّموز المتحجّرة التي يتلهّى بها العقل عن الخيال. فأنت لا تكاد تمرّ بحيّ من مدينة شرقيّة قحّة حتّى تسمع اسم الله ألف مرّة – باسم الله، وحقّ الله، وإكرامًا لوجه الله إلخ. إلّا أنك لو فتشت عن الله في الذين يتلفّظون باسمه لوجدته أمّا كلمة على شفاههم أو فلسًا في جيوبهم أو لقمة في بطونهم.

لقد ضاع الشرق ما بين عقله وخياله فأصبح من السهل على الغرب المنصرف إلى عقله دون خياله أن يسطو عليه فيستعمره ويستغلّه ويمتهنه. لكنّه لا يستطيع أن يستعمر أو يستغلّ أو يمتهن منه غير عقله. أمّا خياله فلن يصل إليه لا بتلسكوبه، ولا بطيّاراته، ولا بمدرّعاته، ولا بدبّاباته.

لعمري لو قلتَ اليوم لبوذا: «إنّنا يا غوتاما قد اخترعنا آلة نطير بها إلى قمة إفرست» فماذا عساه يقول لك؟ إنّه ليجيبك: «ما شأني وشأن آلتك هذه؟ فأنا قد طرت إلى قمة الحياة – إلى النرفانا – بجناحين ليسا من خشب ولا من حديد. ولا محرّك لهما إلّا خيالي».

أو لو قلتَ ليسوع: «إنّنا يا ابن مريم قد اكتشفنا أشعّة نبصر بنورها موضع الداء في داخل الجسم البشريّ فنداويه» لأجابك: «ما لي ولأشعّتكم هذه؟ فأنا أُبصر الداء وأُداويه بأشعّة غير منظورة – هي أشعّة خيالي».

أو لو قلت لمحمّد: «ها نحن يا رسول الله نتكلّم اليوم في دمشق فيسمعنا في الحال بالراديو من هم في مكّة» أوَما كان يجيبك: «أمّا أنا فأسمع بأُذن خيالي صوت جبريل من غير راديو. وفي صوته أسمع صوت الله. وفي صوت الله كلّ أصوات الحياة»؟

لا تعرف المدنيّة الغربيّة من أبي الهول إلّا من طرف ذنبه حتّى كتفيه. أمّا رأسه الحامل سحر الخيال ومقدرة الوصول إلى الله فلا يكاد يعنيها منه شيء على الإطلاق. بل هي تنكره على أبي الهول إلّا متى توصّلت إليه بالعقل وبراهينه. وإنّي لأشفق على أبي الهول لو هو عُرض على الغرب قبل أن يعطيه الشرق رأسه. ترى أيّ شكل من الرؤوس كان يلبسه الغرب؟ بل كم كان يبدّل له من رؤوس بين يوم وأخيه حسبما تقضي «فحوصه واستقصاءاته وبراهينه العلميّة»؟ ولعلّه بعد جهود طويلة مضنية كان يمنّ عليه برأس ثعلب. وقل مثل ذلك في ثور أشور وجناحيه.

جُلّ ما فعلته المدنيّة الغربيّة حتّى اليوم – مثل كلّ ما سبقها من مدنيّات عقلية – هو أنّها وسّعت نطاق المحسوسات. وبذلك أكثرت من شهوات الجسد وحاجاته إلى حدّ أنّ الحصول عليها أصبح مقتلة للروح والجسد معًا. فهي ما أكثرت خيرات الأرض حتّى أكثرت البطون الفارغة منها بإكثار البطون المتخمة بها. وهي ما أطالت متوسّط العمر سنة حتّى أطالت شقاءه سنين. ولا قرّبت المسافات بين تخوم الأمم فرسخًا حتّى أبعدتها بين قلوبها فراسخ. ولا نشرت العلم حتّى نشرت

الجهل. لأنّها في كلّ ما تعلّم لا تستعلم إلّا العقل الذي لا يعلَم وليس بإمكانه أن يعلَم. وهي ما عزّزت الفنون إلّا لتجعل ما فيها من روح مطيّة لما فيها من مادة. ولا قصّرت ساعات العمل حتّى مدّدت ساعات الطيش والرذيلة والفحشاء. فلا عجب أن يكون لها في كلّ يوم أزمة اقتصاديّة، أو مشكل سياسيّ، أو صدمة تسيل فيها دماؤها وتمزّق لحومها وتتقطّع أمعاؤها.

قال لي أحد الأدباء الشرقيّين وقد سمعني أبسط مثل هذه الأفكار: «إنّ قناعة الشرق بخياله قد أوصلته إلى ما هو فيه اليوم من فقر وضعف وعبوديّة. أمّا الغرب الذي لا يعرف للقناعة معنى فغنيّ وقويّ وعاتٍ. وهو زاحف علينا بسيّاراته وطيّاراته ودبّاباته، وبمدارسه وفوارسه ومبشّريه، وبزيته النباتيّ وسمنه النباتيّ وحريره النباتيّ. وبعيون «كواكبه» المكحّلة وأفخاذهنّ العارية. وبسواعد مصارعيه وقبضات ملاكميه. وأخشى – إن تفشّت أفكارك في الشرق – ألّا يبقى هنالك من شرق». وأنا أعيد هنا ما قلته لذلك الأديب:

الفقير مَن اشتهى الغنى ولم تكن له المقدرة على الوصول إليه. والغنيّ مَن توافرت له المقدرة دون الشهوة. إنما الفقير المدقع هو من توافرت له الشهوة والمقدرة دون الخيال الذي يميت الشهوة وأوجاعها ويستخدم المقدرة للوصول إلى ما هو أبقى من الغنى. الشرق اليوم فقير. أمّا الغرب فمدقع.

والضعيف مَن اعتقد أن بإمكانه نيل حقّ بالقوة ولم تكن له القوّة. والقويّ من توافرت له القوة ومعها الخيال العارف بأن الحقّ لا يؤخذ ولا يُردّ بالسيف. لذلك يترفّع عن امتشاق السيف. إنّما الضعيف الضعيف من كانت له القوّة دون المعرفة بأنَّ الحقّ لا رأس له يُكسر بالفأس ويُجبر بالمدفع. الشرق اليوم ضعيف. لكنّما الغرب أضعف.

والعبد من انقاد لمشيئة يحسبها غير مشيئته ولا قوّة له على ردّها. والحُر من إذا استسلم لمشيئة جعلها مشيئته. إنّما عبد العبد هو سيّد العبد. الشرق اليوم عبد. أمّا الغرب فعبد العبد.

إن مقاومتك العقل بالعقل كضربك الصخر بالصخر – الاثنان يتفتتان إن لم يكن اليوم فغدًا. أمّا مقاومتك العقل بالخيال فكمقاومتك السيف بالهواء – تكلّ يد الضارب ويصدأ السيف ويبقى الهواء طليقًا لا جرح في صدره، ولا خوف في قلبه، ولا أنّة بين شفتيه.

ستغمر أمواج المدنيّة الغربيّة وجه المعمور شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا. لكنّها عندما تبلغ أقدام قمم الخيال الشرقيّ ستتفقأ عليها غاضبة، ثمّ يائسة، ثمّ نادمة، ثمّ تغسلها مستغفرة وترتدّ عنها وقد تكسّرت في زبدها أشعّة الجمال الملتهب فوقها.

إنّي أرى خيال الشرق يطلّ على العالم من جديد. والذي سيحمل مشعله نبيّ عزيمةُ الأرض في رجليه وقوّة السماء في ساعديه وبهاء الحقّ في ناظريه ووداعة المعرفة في لسانه وحلاوة المحبّة في قلبه.

وسيمشي هذا النبيّ بين الناس شرقًا وغربًا فيتبعه بعض من هم أشدّ تصلّبًا للعقل ومحسوساته. ويهرب منه الكثير ممّن يحسبون أنفسهم في رأس أبي الهول وهم ما يزالون في ذنبه.

وسيحمل هذا النبيّ قلبه على كفّه طعامًا لكلّ جائع. فيأكلون منه في الغرب ويتسمّمون. ويتناولون منه في الشرق ويحيون. ولن يُصلَب.

مَلحمَة الملاحِم

طغت هذه الحرب [1] على قلوب الناس وأفكارهم – المحاربين منهم وغير المحاربين – طغيانًا لا عهد لهم بمثله منذ عهدهم بالتاريخ. فهي على شفاه الكبار والصغار في مشارق الأرض ومغاربها، وملء مسامعهم وأبصارهم؛ وهي في التراب الذي يطؤون، والهواء الذي يتنفّسون، وفي ما يأكلون ويشربون ويلبسون، وكلّ ما يتصل بهم من قريب وقصيّ، وظاهر وخفيّ. فكأنّما الأرض مسرح واحد والناس جميعهم ممثّلون. وكأنّما الحرب ساحر يهز عصاه فينبري كلّ يمثل دوره أتمّ تمثيل. أو كأنّ الحرب تيّار كهربائيّ هائل ما مسّ إنسانًا من الناس حتّى مسّهم أجمعين.

تلكم، في نظري، هي المعجزة الكبرى التي جاءتنا بها الحرب العالميّة الثانية. فمن بعد أن مرّت بالناس حقبة طويلة تفسّخوا في خلالها قبائل لا روابط بينها، وانتشروا في طول الأرض وعرضها أُممًا وممالك لا تجمعها جامعة، وراحوا يمثّلون مشاهد متقطّعة على مسارح متباعدة، إذا بهم اليوم يمثّلون رواية واحدة على مسرح واحد، وينفعلون في آن واحد بانفعالات واحدة. وهكذا تعود الإنسانيّة المفكّكة فتبدو جسدًا واحدًا تشترك في جهازه العصبيّ وفي دورته الدمويّة كلّ الأمم ودماؤها.

أجل! ذلّكم هو الفتح المبين الذي فتحته للناس تلك الحرب من حيث لا يعلمون. فقد أظهرتهم جماعة واحدة تتقاتل في الظاهر وتتطاحن. ولكن على حدّ ما يتقاتل الممثّلون في رواية تندمج مشاهدها وفصولها وكلّ حركاتها وسكناتها في وحدة رائعة من الفكر والفنّ. فما من كلمة زائدة، أو حرف مهمل، أو حركة في غير محلّها، أو سكنة إلّا في أوانها.

أمّا الرواية التي بدأ الناس يمثّلونها منذ آدم وحواء غير عارفين ما هي، ولا الذي ألّفها، ولا القصد من تأليفها، فهي ملحمة الملاحم – ملحمة الإنسان مع نفسه ومع الأرض والسماء. وما الحرب التي حسبناها كارثة هائلة غير مشهد ضئيل من مشاهدها – ولا أقول فصل كبير من

فصولها. وسَيَلي ذلك المشهد مشاهد، ثمّ فصول، ثمّ مشاهد تتكشّف لنا تفاصيلها لمحة تلو لمحة، وعامًا بعد عام، وجيلًا إثر جيل. ولن يُسدل الستار عليها إلّا بالغلبة الكاملة للإنسان الكامل.

فما أجهل الناس – وهم من نضالهم في البداية – يتوهّمون أنّ ملحمة الإنسان قد أشرفت، أو تكاد، على النهاية، وأن الحرب الأخيرة كانت الفصل الأهمّ والأخير من فصولها. فلا تضع أوزارها حتّى يُسدل الستار على الحروب ليرتفع من جديد عن إنسانيّة ترتع في سلام دائم، وتنعم بحرّية أو حريات أقلّ بركاتها العدل والحق والمساواة ورغد العيش.

كيف للحرب التي كنّا في غمارها، بل كيف لأيّ حرب، أن تضع أوزارها وما هي غير مشهد من مشاهد ملحمة الملاحم التي ما برحت ولن تبرح مشبوبة السعير ما دام في السماء وعلى الأرض قيد واحد يقيّد حرّية الإنسان؟

وها هو الإنسان يرسف في قيود لا حصر لها ولا عدّ. فهو في حربه مع نفسه ما يزال كالخشبة على وجه اليمّ في حربها مع الأمواج فلا هو سيّد فكره يسيّره كما يشاء، ولا هو سلطان قلبه يجريه حسب هواه، ولا هو ربّ جسده يتحكّم فيه بملء إرادته. بل نراه، على العكس من ذلك، أُلعوبة لأفكاره، ومطيّة لأهوائه، وعبدًا لجسده. ولن تتمّ له الغلبة حتّى يصبح السلطان المطلق على فكره وقلبه وجسده، فيجعل منها مثلّثًا متساوي الأضلاع، تستطيل أضلاعه استطالة الزمان، وتتّسع مساحته لكلّ ما في المكان. ما لاتّزانه نهاية، ولا على ثباته من خوف.

أمّا نصيب الإنسان في حربه مع الأرض فليس بأوفر منه في حربه مع نفسه. فهذا الكوكب الذي ما ينفكّ هائمًا بنا في مفاوز الفضاء ماذا عسانا نعرف عن ماضيه وحاضره وآتيه، وعمّا انطوى عليه من العجائب والغرائب، وعن مقصده من دورانه، وعن شأنه منّا وشأننا منه؟

ماذا عسانا نعرف عن أسرار ذلك الجوّ الساحر والمسحور الذي يغلّف هذه الأرض والذي تلتقي فيه جميع أفكارنا وأحلامنا وشهواتنا بأفكار من سبقونا وأحلامهم وشهواتهم فتتشابك وتتلاحم، وتتصادق وتتعادى، ويبقى، مع ذلك، لكلّ منها مجراه والنقطة التي منها انطلق وإليها يعود؟

إنّ جوّنا ليزخر، فوق ذلك، بما تبثّه فيه الشموس والدراري من حرارة ونور، وبما تنثره من ذُريراتها، وترسمه من خيالاتها، وترسله من عجيب أصواتها وأنفاسها، مثلما يزخر بأنفاس الأرض وكلّ ما على أديمها من حياة وسائل وجماد.

ماذا عسانا نعرف عن أحشاء أرضنا وما انطوت عليه، وحتّى عن رقعة وجهها وما يتألب عليها من غريب الألوان والأشكال؟ ثمّ ماذا عسانا نعرف عن منابع الرياح، ومسارح السحب، وأعماق اللّجّة، ومسالك الحياة السرية في خلايا النبات والحيوان والإنسان؟

لقد جَمعنا الكثيرَ من المعلومات عن طبقات الجوّ وطبقات الأرض، وعن جمادها ونباتها وحيوانها؛ وهي معلومات ذات قيمة من غير شكّ. ولكنّنا ما نزال غرباء عن الأرض، وما تزال

الأرض كتابًا مُغلَقًا دون أفهامنا. أمّا اختراعاتنا، على وفرتها، وأمّا اكتشافاتنا، على أهمّيتها، فما عَدَت أن فتحت لنا بعض صفحات من ذلك الكتاب. إلّا أنّها ما حلّت لنا طلاسمها ولا هدتنا إلى المفتاح لحلّها. فعلومنا وفنوننا، واختراعاتنا واكتشافاتنا، ونُظمنا الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والدينيّة ليست سوى أدوات لنا في حربنا مع الأرض. أمّا أنّها الأدوات التي تكفل لنا النصر، وأمّا أنّها جاءتنا بالنصر كما يظنّ بسطاء العقول، فوهمٌ فادح لا يحمل إلى المؤمنين به إلّا الخيبة ومرارة الخيبة. فالأرض ما تزال علامة استفهام رهيبة في وجه الإنسان. والإنسان عبد ما يجهل وسيّد ما يعرف. ولكنّه مطبوع على طلب الحرّية. لذلك سيمضي في حربه مع الأرض إلى أن تتمّ له الغلبة. ولن تتمّ له الغلبة إلّا متى توفّق إلى أسلحة أقوى وأبقى وأمضى من التي اهتدى إليها حتّى اليوم. والأسلحة تلك جاهزة وموفورة في كيان الإنسان نفسه. إلّا أنّه ليس «جاهزًا» بعدُ للوصول إليها ولحسن استعمالها. والزمان بطوله كفيل بأن يوصله إليها وبأن يعلّمه كيفيّة استعمالها على أتمّ وجه.

وأمّا السماء – وأعني بها ذلك العالم المحجوب عن الأبصار لا عن البصائر، والذي اتفقنا أن ندعوه عالم ما وراء الحسّ أو عالم الروح – أمّا تلكم السماء فالإنسان ما ينفك معها في حرب أين من ضراوتها حربه مع الأرض. فهو، منذ أن كان، ما برح يفتّش عن مصدره، وعن مآبه، وعن الغاية من وجوده، وعن القصد من تشعُّب حياته ما بين عوامل لا يدرك لها أوّلًا ولا آخرًا. فكأنّ حياته نهر واسع يسير بين شطّين أحدهما شطّ الخير، أو ما تعوّد أن يدعوه الخير، والآخر شطّ الشرّ، أو ما ألف أن يدعوه الشرّ. وبين هذين الشطّين تهبّ عليه تارة ريح مؤاتية فيرى الحياة نعمة وهناء. وطورًا تعصف به العواصف فيرى الحياة نقمة وشقاء.

إنّ حرب الإنسان مع نفسه ومع الأرض والسماء هي في الواقع حرب واحدة شنّها الإنسان على جبهات ثلاث. وإذا ما فاته النصر حتّى اليوم فلأنّه ما يزال حديث العهد بالقتال وأساليبه، ولأنّ عدّته الحربيّة ما تزال بالنسبة لعدّة أضداده، كالمقلاع بالنسبة إلى الصاروخ؛ ولأنّه، وهذا هو الأهمّ، ما تعلّم بعدُ كيف يوحّد قواه وقيادته. ولو أنّه تعلّم ذلك لا غير لأصبحت الغلبة منه على قيد باع وأدنى. لكنّه ماضٍ في حربه الضروس على غرار أسلافه. فحروبه ما برحت حروب قبائل ضدّ قبائل، وأمم ضدّ أمم، وأجناس ضدّ أجناس، ومذاهب ضدّ مذاهب، وأقطار ضدّ أقطار، وطبقات ضدّ طبقات. كأنّما الأرض جيفة والناس ضوارٍ وكواسر لا غير. إلّا أنّها – وأعني حروب الناس – سائرة بهم حتمًا، ومن حيث لا يعلمون، إلى دولة عالميّة، ولغة عالميّة، ونقد عالميّ، وفي المستقبل البعيد – إلى دين عالميّ. فهي مراحل تمهيديّة لتوحيد القيادة والقوى في ملحمة الملاحم – ملحمة الإنسان مع نفسه ومع الأرض والسماء.

وها نحن لا نجد للحرب التي اجتاحتنا أمس والحرب التي اجتاحتنا قبلها نعتًا أصدق من قولنا «الحرب العالميّة الثانية» و«الحرب العالميّة الأولى». وفي ذلك مغزى بعيد لأولي الألباب. وهو أنّ الأرض التي كانت حتّى أمس القريب مسارح لا تربطها صلة أصبحت اليوم مسرحًا واحدًا. والعالم الذي كان نتفًا مبعثرة راح يبدو لنا عالمًا واحدًا. والإنسانيّة التي كانت أعضاء مفكّكة أخذت تبرز لأفكارنا جسدًا واحدًا يشترك لأوّل مرّة في عمل واحد، وإن يكن ذلك العمل حربًا أقلّ أهوالها الموت والدمار. وههنا العجيبة – عجيبة المدفع الذي ما خُلق إلّا للتمزيق والتفرقة يغدو أداة رتق وجمع!

يا ليت لكم أن تنظروا بعيون ما لوّنتها العصبيّات القوميّة والدينيّة والإقليميّة. إذًا لعرفتم أنّ اقتتال الناس من أجل هذه البقعة أو تلك من الأرض ليس سوى تمهيد لقتالهم المشترك في سبيل التغلّب على الأرض وجعلها جنّة آمنة للناس أجمعين. وإذًا لأبصرتم من خلال أغشية السنين القريبة والبعيدة إنسانيّة جديدة تحشد قواها الزاخرة تحت لواء واحد هو لواء الإنسان، وبقيادة واحدة هي قيادة الفكر الإنسانيّ الجبّار، وبإرادة واحدة هي إرادة الإنسان التي ما التوت ولن تلتوي في حربها مع المجهول. وإذًا لأدركتم أنّ كلّ ما ينتاب الإنسان في حياته من تجارب ليس أكثر من مشاحذ لسلاحه وإرادته في ملحمته الهائلة. وإذًا لأيقنتم أنّ الإنسان لن يخرج من ملحمته تلك إلّا وقد انفتحت له مغالق الأرض وكُوى السماء، وأصبح سيّد نفسه المطلق لا ينازعه فيها منازع ولا تحصرها شطوط خير أو شر، ولا حدود زمان أو مكان.

تلكم هي الحريّة القصوى التي ما من هدف سواها يليق بالإنسان العجيب وبالملحمة العجيبة التي هي حياته. واللّبيب اللّبيب من اتخذها نبراسًا لأفكاره ونيّاته، فجعل من أيّامه ولياليه درجات يرقى بها إلى قلب هيكلها القدّوس.

---

1 الحرب العالميّة الثانية.

إخوة غُرَباء

يا أخًا لم تَلِده أمّي،

ها أناذا اليوم بين ذراعيك. وها أنت بين ذراعيّ. وعناقنا عناق الراح للماء، والنور للعين، والحلم للمنام. فما أحبَّ هذا اليوم إلى قلبي وأشهاه، وما أجمله تاجًا أتوّج به دهورًا من حياتي أودعتها ذمّة الزمان الذي ما خان ولن يخون.

لا يهولنّك يا أخي عَياءٌ في مَفاصلي، وشحوب في وجنتيّ، وضباب في مقلتيّ، وذهول على شفتيّ. فما أذكر – ولعلّ الزمان يذكر – كم فَلَكًا قطعتُ، وكم دهرًا طويت قبل أن أدركتُ هذا اليوم.

لقد نهكني السير يا أخي. نهكني حتّى الموت. ولكنّ الموت ما كان أضعف منّي ساعةً مثلُه في هذه الساعة. فأنا، ويدي في يدك – يد الأخوّة الجبّارة – أمنع من أن تظفر منّي براثن الموت وأنيابه ولو بخدش طفيف. وأنا، وقلبك نابض في قلبي نبضَ الأخوّة التي لا تُقهر، أقوى من أن يُخرس الفناء أنباضي.

تعبتُ. إي تعبتُ. إلّا أنّني ما استسلمتُ يومًا للتعب ولا يئستُ. فمنذ أن حبلت السماء بالحياة فوضعت الأرضَ، ثمّ حبلت الأرض بالإنسان فوضعتنا في مفازة الوجود توأمين أعزلين إلّا من الشوق إلى المعرفة، وقالت لنا: «امضيا في هذه المفازة وتعارفا» – منذ تلك اللحظة مشينا كلّ واحد في سبيله. ومشت بنا الأرض في سبيلها بين النجوم تقسّم لنا الزمان أيّاما وأعوامًا، والحياة أدوارًا وأعمارًا، فتسوقنا من مهد إلى لحد، ومن لحد إلى مهد.

وتمادى بنا السير وشطّت بنا الدار. فإذا أنت في واد وأنا في واد. وحملتنا أرحام كثيرة، وأرضعتنا أمّهات كثيرات. فنسيتَني ونسيتُك. فلا أنا أعرف لي إخوة إلّا الذين ولدتهم أمّي، ولا أنت تعرف لك إخوة إلّا الذين ولدتهم أمّك. أمّا الشوق فيك وفيّ – ذلك الشوق الذي زوّدتناه الأرض يوم وضعتنا في مفازة الوجود – أمّا ذلك الشوق فكان يعرف ما لا نعرف. وكان يذكّرنا فما نذكر.

وإنّي، وإن غاب عنّي الكثير ممّا كان منّي ومنك، ما نسيت يومًا أدركتني فيه عاصفة مجنونة، وكنتُ في قعر واد مظلم، والجوع قد هدّ حيلي وكاد يجفّف أمعائي. فلجأت من العاصفة إلى كهف في بطن ذلك الوادي. وإذا بك جالس هناك وفي يمينك ضمّة من نبال، وعن يسارك موقد فيه نار، وأمامك ظبي طريح وأنت تقطع من لحمه وتشوي على النار وتأكل بِنَهم ما بعده نهم.

كان ذلك أوّل عهدي بالنار والنبال. وإذ مدَدتُ يدي الجائعة إلى الشواء زجَرْتَني وزمجرت. فألححتُ وزمجرتُ. وكان بينا صراع. فكويتَني بجمرة. وطعنتُك بنبلة. وسال منك دم، وسال منّي دم. وامتزجت دماؤنا في بِركة واحدة. وصرعتك في النهاية، فأكلتُ من صيدك وشبعت. وخرجتُ من كهفك ونبالك في قبضتي، وصيدك في جوفي، وسرّ نارك في فكري؛ أمّا في قلبي فكُرهٌ لك قتّال. وعداوة لا تنام.

هكذا تلاقينا من بعد فراق. فلا أنت عرفتني. ولا أنا عرفتك.

وتلاقينا بعد أجيال. وكنتُ قد ابتدعتُ آلة أحوك بها الكساء للعراة. فجئتني أنت وبنوك وبنو بنيك وعليكم ثياب من حياكتي. وظننتكم آتين تشكرون لي جميلي. فرحّبتُ بكم أجمل الترحيب. ولكنّكم جئتم بالسيوف والقسيّ، فتركتموني وبنيّ وبني وبنيّ عراة ومُثخنين بالجراح. وسلبتموني منوالي وانطلقتم.

فلا أنت عرفتني يومذاك. ولا أنا عرفتك.

ودار الزمان فإذا بك بحّار ماهر وبنّاء سفن عظيم. فجئتك لآخذ عنك فن البناء وتذليل البحار. وكنتَ كريمًا فما بخلتَ عليّ بذلك. وبعد أعوام زحفتُ بسفني فحطّمت سفنك وتركتك ورجالك ألعوبة للأمواج وطعامًا للأسماك.

فلا أنت عرفتني يوم ذاك. ولا أنا عرفتك.

ولقد تلاقينا من بعدها مرّات بغير عدّ. وإنّي لأذكر فيما أذكر، مرة وجدتك فيها جالسًا تحت شجرة من التين الهنديّ وفي يدك كتاب. وكنتَ الأسبق إلى اختراع فنّ الطباعة. ووجدتك تنشد ما في الكتاب إنشادًا وتترنّح إذ تنشد. وكان الكتاب ديوانًا من الشعر، وكنتُ صاحب الديوان. فأعززتني وأكرمتني وما بقيتَ تعرف كيف تُظهر إعجابك بي وتقديرك لي. وكانت من بعدها حرب ما بين قومك وقومي والتقينا في حومة الوغى. فما كان منك إلّا أن سدّدتَ بندقيتك إلى صدري وصحت: «خذها يا أبغض الناس وعدوّ الله».

فلا أنت عرفتني يوم ذاك، ولا أنا عرفتك.

وإنّي لأذكر حربًا أخرى كنتُ فيها طبيبًا، فجاؤوني بك مهشّم العظام، ممزَّق الجلد واللحم. وكنتَ عدوًّا. فانكببت عليك أجبر ما تحطّم من عظمك وأرتق ما تفتّق من جلدك. وما زلت بك حتّى

أعدتك رجلًا سويًّا قويًّا. فما كادت الحرب تنتهي وكدتَ تعود إلى بلادك حتّى انكببتَ على استنباط سموم فتّاكة تنفثها في الهواء فتقضي عليّ وعلى أبناء قومي.

فلا أنت عرفتني يوم ذاك، ولا أنا عرفتك.

وإنّي لأذكر فيما أذكر أنّك سمعتني ذات يوم أحسد الحوت سابحًا في بحره. فخلقت لي سفينة أقوى من الحوت تجري في غياهب اللجّة. وركبتُ سفينتي الجديدة ورحتُ أطارد بها الحيتان في بحارها. فآنًا أغوص، وآونة أعوم. وإذا بسفينة كسفينتي تجري نحوي. وإذا بك أنت – لا غيرك – تقود تلك السفينة. فما راقتني أن تقاسمني البحار. لذلك دعوتك للقتال. وكان قتال. وكان أنين. وكانت بقع حمر على وجه اليمّ. لقد جمعتنا اللجّة بأعماقها السحيقة وأبعادها الهائلة. فما اتّسعت لكلينا.

فلا أنت عرفتني يومذاك. ولا أنا عرفتك.

وإنّي لأذكر فيما أذكر أنّي سمعتك ذات يوم تحسد النسر يشقّ الهواء بجناحيه القويّين ويجول حرًّا في قباب الفضاء. فابتدعت لك أجنحة أين منها أجنحة النسور. وانطلقتَ في الجو بجناحيك. وانطلقتُ بجناحيَّ. فما راقك أن أقاسمك الفضاء. لذلك انقضضتَ عليّ ولا انقضاض الصاعقة. وكان نِزالٌ. وكان برق ورعد. وفي النهاية هوينا – أنا وأنت – إلى الحضيض نسرين مهشَّمَين.

ونظرتَ إليَّ بعينيكَ الحَمراوين من الغضب فما عرفتني. ونظرتُ إليك بعينيّ الملتهبتين بغضًا فما عرفتك.

وإنّي لأذكر فيما أذكر آلة عجيبة اخترعتَها لتُسمعني بها صوتك وأُسمعك صوتي وإن تكن أنت في أقاصي المشرق وأكن أنا في أقاصي المغرب. فلكَم هلّلتُ لاختراعك وكبّرت. ولكَم قلتُ في داخلي: «الآن نتعارف أنا وأخي التوأم. فبهذه الآلة سأسمع صوته في كلّ حين. وفي صوته سأسمع نبضات قلبه وخلجات فكره. وفي نبضات قلبه وخلجات فكره سأسمع أشواقه إليّ. ومتى سمعتُ أشواقه وأسمعتُه أشواقي عرفته وعرفني من غير شكّ».

هكذا كنت أقول في داخلي. ولكنّني أصغيت وأصغيت. وماذا عساني سمعت منك، وماذا عساك سمعت منّي؟

سمعتك تقذفني بالشتيمة تلو الشتيمة، وتنعتني بأشنع النعوت، وتصبّ عليّ صفراءك وسوداءك، وتهدّدني بالويل والفناء. فأسمعتك من الشتائم أمرّها، ومن النعوت أفظعها. وصببتُ عليك جامات صفرائي وسويدائي. وهدّدتُك بالنّار والدمار.

وهكذا تلاقينا في رحاب الأثير. وحتّى في الأثير لا أنت عرفتني. ولا أنا عرفتك.

أجل. إنّي لأذكر أشياء وأشياء لا تحصى ولا تُعَدّ فعلتَها من أجلي وفعلتُها من أجلك. على أنّني ما أذكر شيئًا واحدًا أذقتني حلوه إلّا أذقتك مُرّه. أو رفعتك به إلّا خفضتني به. فكأنّ السمّ في فمي

شهد في فمك. وكأن النواح في قلبك إنشاد في أذنيّ. وكأنّ ضرع الأرض لا يجود عليّ إلّا إذا جفّ عنك؛ وبساط الفضاء لا يتّسع لجناحيك إلّا إذا كان شَرَكًا لجناحيَّ؛ وأمواج البحار لا تنقاد لي إلّا إذا امتنعتْ عليك؛ وأوتار الأثير لا تهتزّ لأفراحك إلّا إذا ثملتْ بأحزاني. فلا أنت منّي بخمر أو بخلّ، ولا أنا منك بخلّ أو بخمر.

كذلك كنتُ وإيّاك حتّى أمس الدابر – أمسي وأمسك الأعميين. فقد كنّا نقول ونعتقد ما يقوله ويعتقده البُكْم والعميان الذين لا يعرفون أخوّة إلّا التي تقذفها الأصلاب والأرحام: «أنا وأخي على ابن عمّي، وأنا وابن عمّي على الغريب».

الغريب...

ومن هو الغريب؟ لقد كنتُ حتّى الأمس أعرف ما تعنيه تلك الكلمة. أمّا اليوم فمعناها قصيٌّ عن فهمي ووقعها ثقيل في أذنيّ. فهي والخنفشار عندي من مقلع واحد.

ذاك لأنّي اليوم غيري أمس. فما أدري أيّة يد ساحرة مسحت عينيّ، وأيّة نسمة قدسيّة لثمت شفتيّ. وإذا بحياتي منذ أن ولدتني الأرض حتّى الآن تنكشف لي بغتة بكلّ خُطاها وخطاياها. وبكلّ تعاريجها وأسرارها. وإذا بي لا أُبصر لي أثرًا في الأرض أو في البحر أو في الجوّ إلّا أبصرت بجانبه أثرًا مماثلًا لك. وحينئذ أدركت ما كنت أجهل.

أدركتُ يا أخي أنّني ما خطوت خطوة في حياتي إلّا كانت يدك في يدي، وساعدك إلى ساعدي، وكتفك إلى كتفي. وأنّني ما تنفّست نَفَسًا إلّا كنتَ شريكي فيه؛ ولا فكّرتُ فكرًا إلّا وخاتم فكرك عليه. وأنّني حييت لا بما فيّ وحدي من حياة، بل بما فيك وفيّ من حياة. فكنت أُبصر بعينيك، وتبصر بعينيّ. وكنت أسمع بأذنيك، وتسمع بأذنيّ. وكنت أتكلّم بشفتيك، وتتكلّم بشفتيّ. وكنت أمشي برجليك، وتمشي برجليّ. وها أناذا أستغفرك جميع ذنوبي إليك – وما أكثرها! فهلّا غفرت؟

أدركتُ يا أخي أن ما من نجم أضاء في الفلك إلّا لي ولك. وما من عصفور غرّد إلّا لي ولك. وما من زهرة باحت بوجدها، أو ثمرة جادت بشهدها، أو نسمة همست سرّها، أو ديمة نثرت دُرّها إلّا لي ولك. فالأرض لنا – وما أجملها وأسخاها. والسماء لنا – وما أفسحها وأبهاها. ولنا الأخوّة التي تقهر الدهور – فما أغنانا، وما أقوانا!

لقد كنّا إلى اليوم أخوين غريبين. أمّا اليوم فقد عرفتك. إي، لقد عرفتك فأحببتك.

وها أناذا أُصافحك فأصافح فيك الحياة. وأُعانقك فأعانق فيك الناس أجمعين.

يا أخًا لم تَلِده أمّي.

الحَكيم وَالسّمَكة

يُروى عن تْشُوان-تْسُو، الحكيم الصيني الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد، أنّه خرج يومًا لصيد السمك في نهر من أنهار ولاية تْشو. وإذ هو لاه بالصيد أقبل عليه كبيران من كبراء الدولة، وباحتشام كلّيّ أطلعاه على رغبة أمير البلاد في إسناد منصبٍ سامٍ إليه، لأنّ البلاد في حاجة إلى حكمته. فمضى الحكيم في صيده، ومن غير أن يلتفت إلى الرسولين أجاب:

«سمعتُ أنّ في قصر الأمير، على المذبح المكرّس لتكريم الأسلاف، سلحفاةً مقدّسةً مضى على موتها ثلاثة آلاف سنة. وأنّ الأمير يغالي في تقديسها فيحفظها محنَّطة في صندوقة من الذهب الإبريز. فما قولكما في تلك السلحفاة لو أنّها خُيّرت اليوم ما بين أن تكون ميتة ومحنّطة في صندوقة من الذهب أو أن تكون حيّة تجرجر ذيلها في الأوحال، فأيّ الأمرين تختار؟»

فأجابه الرسولان: إنّها، من غير شكّ، تختار أن تكون حيّة تجرجر ذيلها في الأوحال. عندئذٍ صاح بهما تشوان-تسو:

«اغْرُبا عنّي: فأنا كذلك أختار أن أجرجر أذيالي في الأوحال».

هذه حكاية صغيرة ترويها الكتب عن حكيم كبير من بلاد أنجبت قافلة طويلة من أنبل الحكماء أمثال كونفوشيوس ولاوتسو ومنشيوس وكثير سواهم. والحكاية، كما ترون، مبطّنة عن مغازٍ كثيرة، أبرزها وأقربها إلى التناول هو أنّ الحكمة تأبَى القيود، وإن تكن من ذهب، وتؤثر عليها الحريّة وإن تكن حريّة السلحفاة في الأوحال. فالسياسة وما يلابسها من مداهنة ومواربة وزلفى، والسلطان وما يرافقه من غطرسة وتهويل وتهديد – كلّ ذلك يتنافى مع ما تفرضه الحكمة من عزّة النفس والاستقامة والصدق والدعة والعطف على الضعيف قبل القويّ.

ذاك أهمّ ما تؤدّيه الحكاية إلى ذهن قارئها. وذاك ما رمى إليه الحكيم الصينيّ بجوابه الجافّ، الحاسم. ولكنّ خيالي أبَى عليّ الوقوف عند ذاك الحدّ. فقد شاقه أن يتخيّل تشوان-تسو من بعد أن انصرف عنه الرسولان يعالج سمكة علقت بصِنّارته وقد سحبها بلباقة من الماء إلى اليابسة ثمّ

هرول إليها وأنباضه تتعالى وتتسارع، وانحنى فوقها انحناءه الغالب فوق المغلوب، وأخذها بكلتا يديه، وهي تتلوى بينهما وتتعصّر، وهو يخشى أن تُفلت منه وتعود إلى الماء.

ليست السمكة من عمالقة الأسماك ولا من أقزامها. ولكنها في معدة حكيم من درجة تشوان-تسو قد تسدّ جوع ليلة. والغريب في أمرها أنّها، والصِنّارة قد نشبت في فكّها الأعلى فنفذت من عينها اليمنى، ما تزال تحاول الهرب. والأغرب من ذلك أنّها من بعد أن انقطع أملها بالنجاة راحت تخاطب صائدها كما لو كانت هي كذلك من الحكماء. وإليكم ما دار بين السمكة والحكيم:

السمكة: منذ دقائق سمعتُ ما قاله لك الرسولان مثلما سمعتُ جوابك لهما. أفتسمح لي أيّها الحكيم أن أطرح عليك سؤالًا؟

الحكيم: تفضّلي. فالحكماء يأخذون الحكمة عن جميع المخلوقات. حتّى عن الأسماك.

السمكة: فهمتُ ممّا قاله الرسولان أنّك حكيم. ولكن ما الحكمة في جوابك القاسي لهما؟

الحكيم: اعلمي أنّ الحكيم لا يعرف للحياة غير معنًى واحد. وذلك المعنى هو الحريّة. فحيث لا حرّيّة لا حياة. وكلّ ما يحدّ من حريّة الحكيم هو موت له.

السمكة: وما هي الحريّة؟

الحكيم: هي أن أفكّر ما أشاء وأشتهي ما أشاء وأعمل ما أشاء ساعة أشاء.

السمكة: وأين أنت من الحريّة؟

الحكيم: في الصّميم. لذلك أبيتُ على أمير البلاد أن يقيّدني بمنصب مهما يكن رفيعًا. وآثرت البقاء حرًّا أصطاد السمك ساعة أشاء.

السمكة: أتراني أعظم من أمير البلاد؟

الحكيم: كيف ذلك ولا وجه شبه بينك وبينه؟

السمكة: لقد فعلتُ ما لم يستطعه أميرك. إذ قيّدتك بيديك ورجليك وقلبك وفكرك.

الحكيم: لا أفهم.

السمكة: وحريّ بك أن تفهم وأنت الحكيم.

الحكيم: ولكن حكمتي غير حكمة الأسماك. أفصحي.

السمكة: أمّا ترى أنّك منذ الصّباح الباكر وأنت تطرح صنّارتك في هذا النهر؟ ولقد رأيتُ أكثر من واحدة من رفيقاتي يأكلن طعمك ويمضين في سبيلهنّ. وكم سمعتك تتحرّق وتتبرّم وتتوعّد. وأنا أكلت طعمك مرّتين. أمّا الثالثة فكانت وبالًا عليّ – وعليك.

الحكيم: عليكِ – نعم. أمّا عليّ فلا. ولكن ما دخل ذلك في حرّيّتي؟

السمكة: لقد كنتَ عبدي منذ الصّباح الباكر حتّى الآن. وها هو النهار قد انتصف. فكأنّك رهنت لي نصف نهار من حياتك وحرّيّتك.

الحكيم: نصف نهار ليس بالشيء الكثير أرهنه لحاجاتي الجسديّة.

السمكة: وكم رهنتَ من حياتك وحرّيّتك لصانع صنّارتك، وصانع القصبة والخيط، وصانع حذائك والكساء الذي على بدنك، وباني كوخك، وخابز خبزك، والذين يموّنونك بالزيت والصابون والشاي والحطب وسواها وسواها ممّا تحتاج إليه في كلّ يوم؟

الحكيم: ما أفهم القصد من كلّ هذا الهرْف.

السمكة: وحريّ بك أن تفهم وأنت الحكيم. أين حرّيتك، وجسدك رهين كلّ من في أيديهم قضاء حاجاته؟ فهو رهين كلّ ما على الأرض وفي السماء.

الحكيم: إن يكن جسدي رهين المخلوقات ففكري طليق. وتشوان-تسو بفكره لا بجسده.

السمكة: وها أنت قد رهنت لي من فكرك قسطًا غير يسير. وأنا سمكة حقيرة. فكيف بغيري من المخلوقات وهي لا تحصى؟ ومن أين أفكارك إلّا منها وممّن سبقك وعاصرك من النّاس وغير النّاس؟

الحكيم: ذاك صحيح. ولكنّ ما أخذتُه من الناس وغير الناس قد جعلني مستقلًا عن الناس وغير النّاس.

السمكة: بمثل هذه الترّهات يتعزّى الحكماء. وقلبك أيّها الحكيم، أليس هو كذلك رهين ما على الأرض وفي السماء؟ بل هو رهيني من الآن حتّى أُصبح في جوفك.

الحكيم: كلّا ثمّ كلّا. فأنا لا أشتهي ما يشتهيه الناس ولا أسلّم قلبي لأهوائهم. فقياد قلبي في يدي.

السمكة: وها أنت اشتهيتني كما يشتهيني باقي الناس فسلّمتني قياد قلبك. لأنّ القلب رهين ما يشتهيه.

الحكيم: لو اتخذنا قولكِ ميزانًا للحرّيّة أيّتها السمكة الرعناء لما كان في الأرض ولا إنسان حرّ.

السمكة: ومن قال لك إنّ على سطح الأرض إنسانًا حرًّا؟ الناس رهائن ما يجهلون. ولن ينعتقوا من أيّ مجهول حتّى يعرفوا كلّ مجهول. وها أنت تجهل أنّك إذ تُتلف حياتي وحرّيّتي إنّما تتلف جانبًا من حياتك وحرّيتك. فمثلما تؤذي تؤذَى. ومثلما تأكل تؤكل. ولكن أنّى لك، وأنت الحكيم، أن تفقه ذلك؟

الحكيم: لو صدّقتكِ لوجدتني لا أملك من حياتي وحرّيتي قيد شعرة.

السمكة: صدّقني أيّها الحكيم. أما جئت هذا النهر لأنّك شئت أن تصطاد سمكًا؟

الحكيم: بلى، وقد تمّ لي ما شئت.

السمكة: أما كنت تؤثر أن تصطاد سمكة أكبر مني بكثير؟

الحكيم: بلى.

السمكة: إذن أنت إذ حصلت عليّ حصلت على غير ما كنت تشاء. فأين حرّيّتك؟ وهل تكون الحرّيّة بدون مشيئة؟

الحكيم: لا. لا تكون الحرّيّة بغير إرادة حرّة.

السمكة: وهل أنت حرّ في كلّ ما تريده أيّها الحكيم؟ إذن مُرِ النعاس والجوع والعطش والتعب والمرض والموت أن تأتيك ساعة تشاء وأن تنصرف ساعة تشاء. ثمّ مُرْ أحلامك في الليل وأفكارك في النهار أن تجري حسب هواك. وإن أنت لم تستطع كلّ ذلك فأين حرّيّتك أيّها الحكيم؟

الحكيم: ما أفهم إلى مَ ترمين بمثل هذا الكلام. أتريدين أن تقولي إن تشوان-تسو، وهو الحكيم المكرَّم والمبجَّل، ليس حرًّا؟ وها هو على مسمع منك قد ازدرى بأعلى منصب في البلاد ليبقى حرًّا من كلّ قيد.

السمكة: لا تفهم وحريٌّ بك أن تفهم وأنت الحكيم. أمّا الذي أريد قوله فهو أنّ تشوان-تسو واهمٌ كباقي الناس. يتغنى بالحرّيّة ولكن بلسان عبد وشفَتيْ عبد وقلب عبد. وأحْرِ به أن يفهم، وهو الحكيم، أن الناس، ما زالوا من لحم ودم، فهم رهناء الناس وغير الناس وعبثًا يتلفّظون باسم الحرّيّة. فهم صيّادو سمك لا غير.

الحكيم: صيّادو سمك لا غير؟ وماذا تعنين بذلك؟ وأيّ علاقة لصيد السمك بالحرّيّة؟

السمكة: كم مرّة طرحت صنّارتك في هذا النهر منذ جئته في الصباح؟

الحكيم: لست أذكر. فقد يكون عشرين مرّة. وقد يكون مائة. وأيّة علاقة لذلك بالحرّيّة؟

السمكة: أكنت تريد في كلّ مرّة أن تصطاد سمكة بعينها؟

الحكيم: كلّا. وكيف لي ذلك وأنا لا أُبصر ما في الماء؟

السمكة: أمّا كنتَ تريد أن تصطاد في كلّ مرّة سمكة كبيرة؟

الحكيم: بلى.

السمكة: وكم سمكة اصطدت؟

الحكيم: ما اصطدت من سوء حظّي إلّا سمكة صغيرة ثرثارة.

السمكة: أكنت تقصدها بعينها حين طرحت صنّارتك في الماء؟

الحكيم: لو كنت أعرف أن صنّارتي ستأتيني بمثلها لحطّمتها.

السمكة: إذن أنت لم تخترني بذاتي. ولا أردتني وحدي من بين كلّ ما في النهر من أسماك.

الحكيم: ذاك أكيد.

السمكة: وهكذا الناس يا تشوان-تسو: لكلٍّ صِنّارته يطرحها في هذا النهر أو ذلك البحر من أنهار الحياة وبحارها. وصنّارته إرادته. فحينًا تعلق بها سمكة. وحينًا تعلق بها طحالب وحشائش

وأقذار. وحينًا لا تعلق بها إلّا الخيبة. وما من صيّاد سمك يقصد سمكة بعينها إذ يطرح صنّارته أو شبكته في الماء. فهو أعمى يصطاد في الظلمة ولا يدري بماذا تمنّ عليه الظلمة.

الحكيم: ومَن ذا الذي يقضي لصنّارتي أن تعلق بها سمكة ثرثارة مثلك، ولصنّارة غيري أن تعلق بها لؤلؤة، ولصنّارة الثالث أن تعود بالخيبة؟

السمكة: لعلّه النهر يا تشوان-تسو. ولعلّه تشوان-تسو والنهر معًا. فأنت متى أتيت النهر راضيًا بما سَيقسِمه لك فقد جعلتَ إرادته إرادتك. وكنتَ إذ ذاك حكيمًا حقًّا. فسلكت أوّل الطريق إلى الحرّيّة.

الحكيم: إن طريق الحرّيّة لطريق موحش وشائك.

السمكة: بل هو بساط من الريح لمن يريد ما يعرف ويعرف ما يريد. والآن عد أدراجك يا تشوان-تسو، واستغفر الحرّيّة ألف مرّة ومرّة. فإن هي غفرت لك ذنوبك إليها غفرتُ لك ذنبك إليّ. انطلق بسلام.

* * *

وكان أنّ تشوان-تسو ذُهل عن السمكة بحديثها. فما أتمّت كلامها حتّى قفزت من يده إلى الماء. فانتفض كمن أفاق من كابوس. ثمّ راح يتأمّل الماء يجري وئيدًا في النهر وعلى وجه الماء قد طفت القصبة التي كانت في يده.

وما درى تشوان-تسو كيف أفلتت السمكة من يده ومعها القصبة، ولا كيف أدركه الظلام. ولكنّه تنفّس الصُّعداء وقفل راجعًا من حيث جاء. وكان يمشي شاعرًا كأنّه محمول على بساط من الريح.

ضَباب

قلّ في الناس من يحبّ الضباب. وأكثرهم يتحمّله على مضض مثلما يتحمّل الذبابَ والبرغشَ والعواصف والأوبئة وذلك الصنفَ المأفون من البشر الذي دأبه أبدًا إصلاح الكون من غير أن يفكّر يومًا بإصلاح نفسه.

أمّا رجال البحر ورجال الجوّ فيتعوّذون بالله من الضباب كما يتعوّذ المؤمن من الوسواس الخنّاس. فالضباب عدوّهم الأكبر والألدّ. ولا بدع فقد ابتزّ من صفوفهم أرواحًا بغير عدّ. وهم يسعون ليل نهار، وبكلّ ما أوتوه من قوّة الاستنباط، إلى الاحتيال عليه بطريقة، أو طرق، تكسر من شوكته وتحدّ من أذاه. وقد ربحوا في حربهم معه حتّى اليوم معارك ذات شأن. لكنّهم لم يربحوا بعدُ المعركة الحاسمة. ولعلّ النصر مكتوب لهم في كتاب الغيب العظيم.

إنّي لأفهم – أو إخالني أفهم – لماذا يتبرّم الناس بالضباب. فهو، وإن يكن ظاهرة من ظواهر الطبيعة، إلّا أنّه يبدو كما لو كان غير لائق بذوق الطبيعة وفنّها وأمومتها. فالطبيعة آية في الذوق والفنّ والحنان عندما ترفع أوشالًا من البحر إلى الجو فتسوقها في شكل غمامة من هنا إلى هناك إلى هنالك. ثمّ لا تنفكّ تغيّر وتبدّل في هندستها وألوانها ما بين لحظة ولحظة. فكأنّها تحفة فنّيّة تعرضها على الناس، أو كأنّها قِربةٌ سحريّة ملأتها بإكسير الحياة وراحت تلوّح بها للأمصار والأمعاء العطشى قائلة لها: «لا تيأسي. ففي بحاري ريّ لكلّ عطشان.»

لكنّها – وأعني الطبيعة – عندما ترفع مثل تلك الأوشال ثمّ تمضي تندفها بمِنْدَفها العجيب كأنّها القطن، ثمّ تحملها على أكفّ الريح فتبسطها بطرفة عين أكفانًا كثيفة تلفّ بها الأرض جبالها وأغوارها، وحزونها ونجادها، وغاباتها وصحاريها، وكلّ ما هبّ عليها ودبّ. أقول، عندما تفعل الطبيعة ذلك تفسح المجال واسعًا للشك في ذوقها وفنّها وأمومتها. إنّها إذ ذاك لندّافة ماهرة لا فنّانة ساحرة. وإنّها لرَابّةٌ كؤود لا أمّ رؤوم. لا سيّما إذا ما غشانا ضبابها في النهار فحوّله ليلًا أنفاسه لَزِجة، لاهثة؛ وأنباضه متباطئة، متثاقلة؛ وأصواته خافتة، واجمة؛ وأبصاره معصوبة، مكدودة.

إنّه لَلَيلٌ غريب حقًّا – ذلك الليل الذي يفرضه علينا الضباب أحيانًا حتّى في رائعة النهار. ليلٌ أبيض الحنادس، هفّاف الجلابيب، نديّ الملامس. إلّا أنّه ساحر ماكر. فهو بمسحة كفّ يمحو معالم الأرض والسماء، وجميع ما تنطوي عليه من بديع الأشكال والألوان. فكأنّما الأرض غير الأرض والسماء غير السماء. بل كأنّما لا أرض هناك ولا سماء.لقد تبدّلت الأشياء وانصهرت ثمّ تبخّرت ضبابًا. فالضباب هو الكلّ في الكلّ. لا ألوان غير لونه، ولا أشكال إلّا شكله. ويا ليت لونه كان لونًا يُعرف. ويا ليت شكله كان شكلًا يوصف.

على أنّ الضباب، رغم مقتنا إيّاه، لا يخلو من فتنة بالغة ووحي جميل. فأنا قلّما عرفت مشهدًا يفوق بروعته سماء مجلوّةً، وجبالًا حالمة، ومروجًا ضاحكة، ثمّ بحرًا في غِلالة من نور يتنفّس هانئًا فتنعقد أنفاسه سُحُبًا لؤلؤية من فوقه لا تلبث أن تندفع نحو الشاطئ كأنّها الجيش المدرَّب أتمّ تدريب وقد جاءهُ الأمر بالهجوم. ويمضي ذلك الجيش في اندفاعه إلى الأمام لا تصدّه غابة، ولا يعوقه نهر، ولا يثنيه وادٍ، ولا تمتنع عليه قمّة. وما هي إلّا دقائق حتّى يصبح السيّد المطلق في الميدان، وقد حجب السماء والأرض. فما من شيء يُبْصَر إلّاه. وما من حقيقة إلّا حقيقته. والغريب في أمره أنّه جيش سلاحه في أنّه أعزل من كلّ سلاح، وصلابته في أنّه ألين من كلّ ما في الكون، وقوّته في امتثاله الأعمى للإرادة التي تقوده.

أدركني الضباب مرّةً على رأس جبل كسَتْه أحراج كثيفة من الشوح والأرز والشربين. فوقفت كالمسحور أرقب طلائعه المسرعة نحوي من كلّ صوب. لقد كانت تتمزّق كلّما ارتطمت بجذوع الأشجار فلا تلبث أن تلتئم بلمحة الطرف لتتابع زحفها الجارف إلى الأمام. وإذا بالأشجار تغيب عن أبصاري واحدة تلو واحدة. وجماعة بعد جماعة.

وإذا بي، والضباب يكتنفني من كلّ جانب، كأنّني الإنسان الأوحد في الكون. ولولا رقعة ضيّقة من التراب ما برحتُ أبصرها وأحسّها تحت قدميّ؛ ولولا فسحة باعَيْن أو ثلاثة من الهواء بقيتُ أميّز من خلالها بعض الجذوع والأغصان لحسبتني لا تربطني رابطة بالأرض ولا بالسماء.

إنّه لشعور غريب ورهيب في آن؛ ذلك الشعور بأنّك «ما بين طرفة عين وانتباهتها» قد انسلختَ عن دنياك ولم يبقَ لديك منها غير ذكريات محفوظة في تلافيف الدماغ. فالسماء بأجرامها ذكرى لا غير. والأرض بمن عليها وبما عليها ذكرى لا غير. لقد انطمس الكلّ في رشاش أغبر مستطير، ولم يبقَ غيرك. أنت وحدك ما تغيّر فيك شيء. أمّا سائر الكائنات التي كنت تستعين بها وتستأنس جوارها، وتستمتع بجمالاتها فقد اندثرت – اضمحلّت – غاصت في لا شيء. أتراها ما كانت يومًا غير أوهام وأصغاث أحلام؟

وأنت – أنت الواقف في وسط ذلك الخضمّ الذي ابتلع كلّ ما في الكون إلّاك – أتراك وحدك أقوى من الضباب؟ وتراك وحدك الحقيقة الأزليّة الأبديّة التي في قلبها تولد وتترعرع كلّ حقيقة في

الوجود؟

ويجمح بك الخيال. فإذا أنت كذلك ذرّات منثورة مع الضباب. بل أنت ذلك الضباب حيث لا حدود ولا تخوم، ولا بدايات أو نهايات. حيث لا موت ولا حياة؛ فلا جهد ولا تعب؛ ولا فرح ولا ترح؛ ولا نزاع أو خصام، ولا خوف أو انتقام. بل محيط بغير شطوط، لا تسوطه العواصف ولا تعبث به الأنواء. فما تتلاطم فيه أمواج ولا يتطاير منه زبد في الفضاء.

إلّا أنّك، مهما طوّح بك الخيال، تشعر في أعماقك بأن الضباب ضباب. فهو لا شك منقشع عاجلًا أو آجلًا.

وتعرف أن عند الطبيعة الساحرة وأمّ الساحرين رُقْيَةً لكلّ سحر. فبمثل خفّة اليد التي بها تبسط من أنفاس الأرض غشاوة للأرض تعود فتجمع تلك الغشاوة ثمّ تفركها أو تنفخ فيها فإذا بها لا شيء. وإذا بالأرض هي هي. وإذا بسكّانها هم هم. وإذا بالقبّة الزرقاء ما تزال قبّة زرقاء، وبالوشائج التي كانت تربطك بكل ما في الكون ما تنفكّ تشدّك إلى كلّ ما في الكون. فأنت أنت؛ ذلك الكائن العجيب الهائم على وجهه في الأرض من غير أن يدرك الشبه العظيم بينه وبين الأرض، وبين ضبابه وضبابها.

أما ترون أن الإنسان يكاد يكون صورةً مصغرة للأرض؟

في الأرض ربيع وصيف وخريف وشتاء. ونحن ما نفتأ نتكلّم عن ربيع الإنسان وصيفه وخريفه وشتائه.

في الأرض أعالٍ وأغوار، وبحار وأنهار. وفي الإنسان أعاليه وأغواره، وبحاره وأنهاره.

في الأرض معادنها ونباتها، وحيوانها وحشراتها. وفي الإنسان معادنه ونباته، وحيوانه وحشراته.

للأرض جوّها الخاص يتكاثف عند قشرتها ويتلطّف كلّما ابتعد عنها. ولكلّ إنسان جوّه الخاص يتكاثف بالقرب منه ويتلطّف بابتعاده عنه.

وأخيرًا في الأرض ضبابها وفي الإنسان ضبابه. والضباب في الأرض تبخّرات تنشرها حرارة الشمس من البحر والمستنقعات والأماكن الرطبة. والضباب في الإنسان تبخّرات تبعثها حرارة الحياة من بحور النفس ومستنقعاتها. ومثلما يحجب ضبابُ الأرض معالمَ الأرض يحجب ضباب النفس معالم النفس.

هكذا فما الحزن إلّا ضباب ينبعث من مستنقعات الخوف والضعف والإلحاد فيغمر النفس ويُعميها عن كلّ ما في الحياة من طمأنينة وقوّة وإيمان.

وهكذا الجذَل النشوان بسلافة الملذات البهيميّة يعصرها الجهل من جِيَفٍ في قلوب الناس ويقطّرها بأنابيق من «آه» و «أوّاه». إن ذاك الجذل لضباب كذلك.

وهكذا الغضب ضباب تنشره الحماقة من مستنقعات الأنانية الخسيسة التي تأبَى أن تطيع وألّا تطاع.

ضبابٌ هو الشك، وضبابٌ هو اليأس. ضبابٌ بسمة المنتصر ورعشة المنكسر. وضبابٌ هذه الفوضى الفكريّة والعاطفيّة المنتشرة في جوّ أرضنا مع رياح الأحقاد والمطامع. ونحن اليوم، أكثر منّا في أيّ يوم، إنّما نحتاج إلى من يذكّرنا بأنّ الضباب ضباب، لا إلى من يخلق فينا مستنقعات جديدة ينبعث منها ضباب جديد فيتركنا وكأنّ ما من حقيقة فينا سوى الضباب.

إنّ أُذن العالم تشكو اليوم أوقارًا من جلجلة السياسيّين، ودندنة الاقتصاديّين، وشقشقة الفقهاء، وثرثرة المصلحين. وهي أشوق ما تكون إلى الصوت الذي سيغنّيها بطولةَ الإنسان في حربه مع نفسه لا مَعَ جاره وأخيه؛ وعظمَةَ الإنسان كعالم تجمهرت فيه كلّ العوالم، لا كمواطن كبير في بقعة صغيرة من هذه الكرة الصغيرة؛ وجلالَ الإنسان كصورة ناطقة ومثالٍ حيّ للقدرة التي منها انبثق، لا كعطّار أو كجزّار.

وإن عين العالم، وقد أضناها وكاد يعميها ضباب العالم، لفي انتظار اليد التي ستكشح عنها الضباب لترى جمال الإنسان – ذلك الجمال الذي، وإن تحجّب عن الحَسْرى والمرمَّدين، ما كان – ولن يكون – ضبابًا في ضباب.

ولعلّ اليوم الذي سنسمع فيه ذلك الصوت ونبصر تلك اليد ليس ببعيد.

طائر الفينكس
أسطورَة الحَياة المُثلى

لعلّ أصعب ما يلاقيه الفكر هو الفصل بين حقيقة الوجود وأوهامه. غير أنّ أكثر النّاس لا يفكّرون. فلا يتردّدون لحظة في إقامة الحدود بين ما يدعونه حقيقة وما يروقهم أن يدمغوه بدمغة الوهم أو الخرافة. هكذا فالغراب في نظرهم حقيقة. أمّا الفينكس فخرافة لا يؤمن بها إلّا البسطاء والقدماء.

ألا فليزجّني من شاء بين القدماء والبسطاء. لأنّني أؤمن بالفينكس. وأنا أؤمن به لأنّني أؤمن بالخيال الذي ابتدعه. أوَليس الخيال حقيقة؟ إذنْ كلّ ما يحبل به الخيال ويلده ويغذيه، أكان أجمل الجميل أم أقبح القبيح، يشترك في حقيقة الخيال. ونحن لو نظرنا في الخيال الذي يعمل بغير انقطاع لوجدنا أنّ ما دون النزر من أعماله يتّخذ شكلًا محسوسًا. فلو رضينا بهذا النزر وحده حقيقةً، ونبذنا ما تبَقّى كما لو كان وهمًا أو غير حقيقة، إذن لكان الخيال ذاته خرافة، والإنسان نفسه أسطورة.

إنّ خيالًا يلد طائرًا كالفينكس لخيال مبدع في ذاته ومن ذاته. لقد خلق الإنسانُ الفينكس ومن حقّه أن ينظر إلى ما خلقه ويقول: «إنّه لحَسنٌ جدًّا». بل إنّني أُضيف إلى ذلك، وإن رماني البعض بالتجديف، أنّ الله نفسه، لو أنّه فكّر بطائر كهذا الطائر، لخلق واحدًا مثله. وقد يكون أنّ خيال الإنسان يتمّم خيال خالقه. أوَلم يصنع الله الإنسان على صورته ومثاله؟

مِن روايات هذه الأسطورة المتعدّدة الرّوايات أنّ الفينكس يسكن الجزيرة العربيّ ة. فتعال نفلت، ولو بضع دقائق، من نطاق الجدران والسقوف ونهرب بالخيال إلى غابة في مجاهل تلك الشقّة من الجزيرة التي دعاها الأقدمون «العربيّة السعيدة» والتي نعرفها اليوم باسم اليَمن. لعلّنا نطلّ على الفينكس في موطنه.

ها هي الشمس قد ارتفعت في المشرق. السماء صافية زرقاء، ونسمات الصبح العليلة تتهادى بين الأشجار مدغدغة أوراقها الغضّة. في الغابة نهر عميق يسير بجلال نحو البحر حاملًا على

صفحته الصافية خيالات الأشجار والأدغال المتعانقة على جانبيه. أنّى التفتّ جمال وسلام. حتّى لتحسبك في جنّة من جنان الفردوس.

غير أنّ الأشجار تحذّرك من الانخداع بالظواهر، فهي تعرف أنّ فيها وعليها وحواليها قد اشتبك الموت والحياة في صراع عنيف. كلّ ما في الغابة من مخلوقات تمشي، ومخلوقات تدبّ أو تزحف، ومخلوقات تمتطي الهواء وتهمزه بالأغاريد، يدأب بغير انقطاع طالبًا غذاء لنفسه أو مطلوبًا ليكون غذاء لسواه. ولا مفرّ من ذلك الدُّردور حتّى للصخور. كلّ ما ينبثق من الأرض تبتلعه الأرض رويدًا رويدًا لتعود فتلفظه حيوانات وطيورًا وزحّافات وحشرات وأشجارًا وأعشابًا وأزهارًا. فالحياة ههنا، شأنها في سائر المسكونة، تشتعل كعليقة موسى من غير أن تحترق.

في رأس أعلى شجرة من الغابة قد جثم طائرٌ لا شبيه له في كلّ الخليقة. وقد اتّجه نحو الشمس فبانت كلّ ريشة من صدره القرمزيّ الناعم كما لو كانت تلتهب بنار من عالم آخر. وكلّ ريشة من جناحيه الذهبيّين، المغموسة أطرافهما في زرقة ولا زرقة السماء، كما لو كانت تقدح شرارًا من شرار الثريّا. عنقه الطويل الجميل، المطوّق بطوق ناصع البياض، قد تقوّس إلى الأمام. أمّا رأسه الدقيق الصنع فقد ارتدّ قليلًا إلى الوراء مصوّبًا منقاره الحادّ نحو الشمس.

لقد جمع هذا الطائر بين زخرفة الطاووس وجمال طائر الفردوس دون خُيَلاء الأوّل وخجل الثاني. وهو ينظر بطمأنينة إلى الشرق كأنّه لا يشعر بوجود شيء في العالم إلّا الشمس – مصدر النور والحياة. ترفرف من حواليه طيور كثيرة ما بين كبيرة وصغيرة، وإذ تمرّ به تخفض أجنحتها مسلّمةً عليه سلام إعجاب واحترام. حتّى إنّ القوي من الفَراش الذي تمكّنه أجنحته من الوصول إليه يرفرف حواليه مرّتين أو ثلاثًا ثمّ يهبط إلى الأرض شاكرًا جذِلًا.

الغابة تعجّ بالأصوات من طائر يناجي عشيره أو وحش ينادي رفيقه. إلّا هذا الطائر الغريب، فهو لا يناجي أحدًا ولا أحد يناجيه. إذ لا عشير له ولا رفيق، لا في مشارق الأرض ولا في مغاربها، ولا في عالم آخر من العوالم الدائرة في الفضاء. سواه من الطيور منهمك في بناء أعشاش أو تربية فراخ. أمّا هو فلا عشّ يبنيه ولا فراخ يزقّها. سواه يرفرف هنا وهنالك طالبًا قوتًا. أمّا هو فلا يقتات بشيء حيّ بل بالبخور والعطور. سواه من الطيور يصيح فَرَقًا وقد علق في مخالب عدوّه. أمّا هو فلا يعرف الخوف لأنّه لا يؤذي مخلوقًا فلا يؤذيه مخلوق، لا ولا تؤذيه العناصر. هو وحيد في العالم كلّه. لكنّه لا وحدة في قلبه ولا وحشة. سواه من الطيور يبدّل ريشه مرّة في كلّ عام. أمّا هو فلم يبدل ريشة واحدة منذ أن كان له من العمر يوم واحد – وذلك منذ خمسمائة سنة!

لقد نبتت في الغابة أشجار كثيرة فنمت حتّى طالت السحاب. ثمّ هرمت وتفتّتت وأخلت مكانها لأشجار أخرى. ولقد جرفت الفصول المسرعة أجيالًا لا تحصى من الطيور والحشرات

والحيوانات ثمّ جاءت بغيرها لتحلّ محلّها. ووراء حدود الغابة، في مملكة الإنسان، قد طغت موجة بعد موجة من أعمال الناس ثمّ تكسّرت وتبعثرت على شواطئ الزمان الذي لا بداية له ولا نهاية.

أمم بكاملها أطلّت على الحياة ثمّ توارت، فكأنّها لم تكن. ومدن عديدة شمخت بأبراجها وقببها إلى السماء فلم تلبث أن عانقت التراب. ممالك علت ثمّ انخفضت. غزاة ومغزوّون. أبطال وأنذال. عاشقون ومعشوقون. رؤوس متوّجة ورؤوس بغير تيجان – كلّ هؤلاء وهذه مشوا فترة على الأرض ثمّ عادت الأرض فاحتضنتهم ليمشي فوقهم سواهم من أبناء الأرض، حيث كانت تكرّ أنهار جبّارة نبتت اليوم أشواك وأحساك وأدغال وبنى النمل قراه والجراذين أجحارها.

كم من جنائن غنّاء ابتلعتها الصحراء، وكم من صحراء أورقت وأزهرت! كم إله أُنزل عن عرشه وإله أُجلس على عرش! كلّ ما في الكون قد تغيّر وتحوّل في غضون خمسة قرون. إلّا هذا الطائر الذي في عينَيه – كما في عينَيْ يهوه – «ألف سنة كيوم أمس الذي عبر وكهجعة من الليل».

غير أنَّ الوقت قد أزف حتّى للفينكس أن «يتغيّر». لا صوت يهمس في أذنيه. ولا إصبع تدلّه كيف يتّجه. ولا قوّة خارجيّة تأمره أن يفعل ما هو مزمع أن يفعله. لكنّه بدليل من نفسه، وبصوت من داخله يدير وجهه نحو الشمال الغربي، وبعد أن يصفّق بجناحيه ثلاثًا، يمتطي الهواء. ولا حزن في قلبه على أمسية خمسة قرون يتركها وراءه، ولا خوف من أغدية خمسةٍ أخرى يقابلها. وهو يعرف محجّته كلّ المعرفة.

في وادي النيل البعيد مدينة كان المصريّون يدعونها «آنّو» والعبرانيون «بيت شمس» والروم «هليوبوليس». وفي تلك المدينة هيكل مكرَّس لعبادة الإله «رَعْ».

الفينكس يعرف المدينة والهيكل، ويعرف الفسحة التي سيستقرّ عليها من المذبح. لأنّه منذ أجيال لا تحصى يقصد إلى جلجثته هذه مرّة في كلّ خمسمائة سنة ليتقبّل عليها الموت. ومرّة في كلّ خمسمائة سنة يعود منها تاركًا الموت في حيرة وارتباك.

يشقّ الفينكس الهواء بجناحيه القويّين مسرعًا نحو وادي النيل. فتجتمع من حوله شتّى الطيور لترافقه ولو بعض المسافة فتُظهر له تجلَّتها واحترامها. ولا يزال يطوي المسافات إلى أن تبدو لعينيه هليوبوليس.

في هيكل رَعْ نافذة فوق المذبح تطلّ منها الشمس فتمتزج أشعتها بدخان البخور وتضفر منه غدائر من ذهب وفضّة كأنّها أنفاس أرواح تائهة. وهذه الغدائر تلتفّ وتنحلّ فوق المذبح كأنّها خيوط ممدودة على منوال خفيّ وكأنّ يدًا خفيّة تحوك منها أنسجة غريبة. وليس في الهيكل الواسع المظلم سوى كاهن عجوز غارق في تأمّلاته.

يسمع الكاهن بغتة حفيف أجنحة يقطع عليه مجرى تأمّلاته. وإذ يرفع عينيه يبصر على المذبح طائرًا عجيبًا يغتسل بنور الشمس، وقطّ لم تقع عيناه على أجمل منه. فتأخذه الدهشة. ولا تلبث دهشته أن تنقلب إلى رهبة إذ يحدّق إلى الطائر فيراه قد انتصب رافعًا جناحيه إلى فوق. ثمّ يراه يصفّق بهما تصفيقًا حادًّا. وما هي إلّا لمحة حتّى يلتهب الجناحان فيبدوان كأنّهما مروحة من نار. ويندمج الطائر بأشعة الشمس حتّى ليشكل على الكاهن أن يفرّق بينهما. وما هي إلّا لمحة أخرى حتّى يرتفع الجناحان إلى أعلى، وقد انقطعا عن التصفيق، فتبدو كلّ ريشة فيهما كأنّهما مشعل من نار حيّة.

يكاد الكاهن لا يصدّق عينيه من شدّة دهشته فحيث رأى منذ لحظة طائرًا حيًّا يرى الآن ألسنة من لهيب تثب إلى فوق. ويا له من لهيب ما سبق له أن أبصر نظيره في كلّ حياته. هو لهيب يرتدّ البصر كليلًا عن بهائه، وتسكر الأنفاس بعطره. ألا تبارك رَعْ الأزليّ الأبديّ، الذي يحيي نفسه بنفسه ويحيي كلّ شيء!

يملأ اللهيب الهيكل بأشباح رائعة كلّها يثب إلى فوق ويتلاشى في وثباته. ورويدًا رويدًا تخمد النار تاركة حفنة من الرماد المتوهّج.

يا للخسارة أن يهلك طائر بديع كهذا الطائر وفي صورة مفجعة كتلك الصورة. ولكن... أحقًّا أنّه قد هلك؟

يفرك الكاهن عينيه ليتأكّد من أنّه ليس في منام. فيرى – ويا للعجيبة! – يرى طائرًا يخرج من كومة الرماد المتوهّج، كاملًا بكلّ تفاصيله، عجيبًا بجماله كالطائر الذي التهمته النار منذ لحظة. فكأنّه هو. بل هو هو. فيهبط الكاهن على ركبتيه، ويغطي عينيه بيديه، ويحني هامته البيضاء حتّى تلامس الأرض ويتمتم كلمات يكاد لا يسمعها:

«يا رَعْ. أيّها الكائن الجميل الذي يجدّد ذاته في حينه. أيّها الطفل الإلهي. يا وريث الأبديّة. يا والد نفسه. يا أمير الأرجاء السفلى ومدير الأحياء العليا. يا إله الحياة. يا ربّ المجد. كلّ نسمة تحيا بشعاعك».

***

إنّ خيالًا جريئًا وخصبًا، إذا ما أعطيته مثالًا كمثال الفينكس، نمّق فيه ووشّى حواشيه إلى ما لا نهاية له. فالقدماء، مع محافظتهم على الفينكس كطائر يحيا فردًا ويجدّد ذاته بذاته، قد ابتدعوا أساطير مختلفة لموته وللمدّة التي يحياها بين التجدّد والتجدّد. وما الرواية التي حاولت تصويرها في ما سلف إلّا واحدة من تلك الروايات الكثيرة التي ضاعت مصادرها في زمان قلّما كان يأبه للأسماء والتواريخ لأنّه كان يهتمّ قبل كلّ شيء بحقائق الحياة الثابتة أو بالفكرة الأبديّة.

لا خلاف على أن اسم الفينكس يونانيّ. والكلمة تعني، في بعض ما تعنيه، نوعًا من النخيل. ولعلّ اليونان عرفوا ذلك النوع في بلاد فينيقية أوّلًا فأسموه باسم البلاد. أو لعلّهم أسموا البلاد باسم ذلك النوع من النخل لأنّه كان يكثر فيها. وقد يكون أنّهم أطلقوا اسم الفينكس على ذلك الطائر الخرافيّ لأنّهم أخذوا الأسطورة عن الفينيقيّين. وفي الفقرة الآتية من نشيد بولاق للإله رَعْ ما يدعم الظنّ بأنّ اسم الفينكس مأخوذ من فينيقية:

«المجد له في الهيكل عندما ينهض من بيت النار. الآلهة كلّها تحبّ أريجه عندما يقترب من بلاد العرب. هو ربّ الندى عندما يأتي من ماتان. ها هو يدنو بجماله اللامع من فينيقية محفوفًا بالآلهة».

إن يكن أصل الاسم في شك فأصل الطائر ذاته أكثر تعقّدًا من الاسم. فقد يكون فينيقيًّا. وقد يكون مصريًّا. وأقرب شبيه له في قديم الآثار الكتابيّة تقع عليه في ذلك السِّفر المصريّ العجيب المعروف «بكتاب الموتى». وهو مجموعة فصول شائقة في الأمور الباطنيّة والفلسفة والشعر والسحر يرجع بعضها إلى القرن الأربعين قبل الميلاد. ولعلّ هذه المجموعة هي أثمن ما ورثناه عن سكّان وادي النيل القدماء. فهي من أوّلها إلى آخرها تنبض بإيمان المصريّين بالخلود. فالموت عندهم ما كان إلّا سياحة بين عالمَين أو انتقالًا من شاطئ الحياة الأدنى إلى شاطئها الأقصى. وإذ أنّ حكماءهم كانوا يدركون كلّ الإدراك أنّ العامّة من الناس أجهل من أن تتناول الحقيقة مجرّدةً عن الحسّ تراهم أقاموا لها بنايات عديدة من الرموز كيما يسهّلوا عليهم الوصول بالحسّ إلى ما هو أبعد من الحسّ. وكان أحد رموزهم طائرًا من نوع الغرنوق أو مالك الحزين. وكانوا يدعونه «بنّو» والاسم مشتقّ من كلمة تعني الرجوع. وهذا الطائر كان يمثّل في أساطيرهم وعلى رأسه ريشتان منحنيتان إلى خلف.

مَن يطالع كتاب الموتى يرَ أنّ طائر البنّو كان يرمز إلى رَعْ – الإله الذي ولد نفسه من نفسه وما كان يعرف الموت. النهار المنبثق من حقوَيِّ الليل، والنور المتغلّب أبدًا على الظلمة. فمن هذا القبيل، وكذلك من حيث الصلة بينه وبين هليوبوليس نرى أن طائر البنّو يشترك في بعض خصائص الفينكس. غير أنّه ليس مذكورًا في كتاب الموتى أو في كتاب آخر كطائر يموت بالنار مرّة في كلّ خمسمائة سنة أو أكثر ثمّ ينهض متجدّدًا من رماده.

إلّا أنّ كاهنًا مصريًّا اسمه «هورابولّو» قد أوجد صلة متينة بين الطائر المصري والفينكس. وذلك في القرن الخامس قبل الميلاد، ففي الترجمة اليونانيّة لكتاباته نسمعه يتكلّم عن طائر معروف عند المصريّين وفي تقاليدهم. واسمه في الترجمة اليونانيّة «فينكس». وبعد أن يتكلّم هورابولّو عن ظهور هذا الطائر مرّةً في كلّ خمسمائة سنة يصف موته هكذا:

«عندما يشعر الفينكس بدنوّ أجله يطرح نفسه بعنف على الأرض فينجرح ويسيل دمه. ومن دمه المتجمّد يولد فينكس جديد. وهذا حالما يكتسي بالريش يطير بوالده إلى هليوبوليس. وإذ يبلغانها يموت الوالد عند شروق الشمس. فيحرقه الكهنة المصريّون. وأمّا الفينكس الجديد فينطلق إلى بلاده».

من بعد هورابولّو أخذت حكاية الفينكس تنتشر وتزداد شهرة في الغرب إلى حدّ أنّها استرعت انتباه المؤرّخين والشعراء واللاهوتيّين القدماء. ومنهم هيرودوتس. فهذا المؤرّخ، في سياق وصفه لسياحة قام بها في مصر، يتكلّم عن الفينكس كما لو كان طائرًا عربيًّا. ثمّ يضيف متحفّظًا: «أمّا أنا فلم أبصره إلّا في الصور». لكن الشاعر «أوفيد» لا يتحفّظ أبدًا في وصفه. فهو يتحدّث عن الفينكس كطائر يجدّد ذاته بذاته. ويتغذّى بالعطور لا غير. ويقول إنّه بعد أن يعيش خمسمائة سنة يبني لذاته عشًّا من القرفة والناردين والمرّ في رأس نخلة. وفي ذلك العشّ يلفظ آخر أنحابه. ومن جثّته يولد فينكس جديد. وهذا، عندما تكتمل قواه، ينتشل العشّ الذي هو مهده ولحد والده ويطير به إلى هليوبوليس حيث يضعه في هيكل الشمس.

وأكثر جرأة من الشاعر أوفيد المؤرّخ تاسيتوس الذي لا يتردّد في ذكر ظهور الفينكس كحادث تاريخي في زمان القنصل بولس فابيوس (34 م).

هكذا درجت حكاية الفينكس على ألسنة القدماء وأقلام كتّابهم وشعرائهم. وكان آباء الكنيسة أكثر الناس إقبالًا عليها. فقد اتّخذها أمثال ترتوليانوس وكليمنضوس وأبيفانيوس رمزًا لقيامة المسيح من الموت. وغيرهم وجد فيها شاهدًا لا يُدحض على ولادة المسيح من عذراء.

مِن أقدم الآثار الكنسيّة التي ورد فيها ذكر الفينكس كتاب «الفيزيولوغوس» الإسكندري. وهو مجموعة حكايات وثنيّة عن الحيوانات والطيور استخلص منها جامعوها مواعظ وإرشادات وحججًا دينيّة. وقد ورد فيها أن الفينكس طائر هندي لا يتغذّى بشيء غير الهواء. ومرّةً في كلّ خمسمائة سنة يقصد إلى هليوبوليس حاملًا أنواع الطيب على جناحيه. وهناك يحرق نفسه على مذبح الهيكل. فتخرج من رماده دودة تتحوّل بعد ثلاثة أيّام إلى فينكس كامل. وهذا الفينكس يحيّي الكاهن ثمّ يطير إلى بلاده.

وفي اللاتينيّة كتاب يدعى Anecdota Syriaca أو الحكايات السريانيّة وردت فيه أسطورة الفينكس كما يلي:

«يقولون كذلك إنّ في بلاد الهند طائرًا عظيمًا يأتي مرّةً في كلّ خمسين (كذا) سنة إلى جبل لبنان. وهناك يجمع أطيب العطور وأجمل الأزهار ثمّ يعود إلى الهند. ومجيئه يكون في شهر نيسان. ففي ذلك الشهر يقيم كاهن المنطقة مذبحًا على قمّة جبلٍ عالٍ ويبني حول المذبح شبه بيت من أغصان الكرمة. فيأتي الطائر ويدخل البيت ويقف على المذبح ثمّ يأخذ يصفق بجناحيه حتّى

يلتهبا ويلتهب البيت معهما فيصبح الكلّ رمادًا. وبعد ثلاثة أيّام يصعد الكاهن إلى قمّة الجبل ويتفحّص الرماد وفيه يجد دودة صغيرة. والدودة هذه تكبر ثمّ تتحوّل طائرًا كالذي احترق. وهذا الطائر يعود من حيث جاء».

***

لقد بقي الإيمان بالفينكس حيًّا حتّى عصر التجدّد (الرنسانس). وبعد ذاك أخذ يتقهقر من وجه «العلم» الذي لا يؤمن إلّا بالبرهان «الحسّي». حتّى أصبح «خرافةً» قلّ من يهتمّ بها. وأكثر الناس لا يعرف منها غير الاسم. ولكنّ الفينكس ما أُدرج في أكفان الإهمال والنسيان إلّا من بعد أن خلّف لنا آثارًا لا تمحى من روعة جماله ومعانيه.

ويندر أن تجد أمّة قديمة لم تنسج على مثال الفينكس ولم تخلق لها طائرًا قريبًا منه. فالعرب قد خلقوا العنقاء والفُرس «السيمورغ» والهنود «غارودا» والصينيّون «فَنْغْ - هْوَانْغ» واليابانيّون «هُوْ - أوْ». ومن شاء أن يقابل بين رقيّ الأمم الروحي فليقابل بين الطيور التي ابتدعها خيالها. ففي المقابلة درس طريف ولذّة لا تُنكَر.

أمّا أنا فلي لذّة أكبر في درس الفينكس. وقبل أن أودّع هذا الطائر العجيب أُحبّ، إذا استطعت ذلك، أن أنفذ إلى سرّه فأعرف القصد من خلقه.

لِنَقُل إنّ الفينكس رمز. ولكن إلى مَ يرمز؟ ألعلّه وليد شوق الإنسان الفاني إلى عدم الفناء؟ أم لعلّه قناع من الجمال حاكه الوهم لأعين قرّحتها الشناعة؟ أم هو رؤيا من رؤى الإلهام الذي ينير الآباد بطرفة عين وينشب من خلال الأشكال إلى روح الأشياء وجوهرها؟

إنّ أكثر البحّاثين الذين وقفت لهم على رأيٍ في الفينكس يتخلّصون منه بقولهم إنّ قدامى المصريّين اتّخذوه رمزًا للشمس في شروقها وغروبها لأنّهم كانوا يعبدون الشمس تحت اسم رَعْ. وإذ انّني لست بالبحّاثة ولا بالعالِمِ الأثريّ تراني أبيح لنفسي مخالفة هذا الرأي من غير أن أجلب لذاتي سخط البحّاثين وعداوة العلماء.

لا جدال في أن سواد الشعب المصري القديم كان يتّخذ الشمس معبودًا له. أمّا مؤلّفو كتاب الموتى وشائدو الأهرام، وخالقو أبي الهول، وإيزيس وأوزيرس وأسرارهما، ومعلّمو ديموقريط وبيثاغورس وأفلاطون فكيف تصدّق أنّهم كانوا يعبدون جِرمًا سماويًّا – مهما عظم ذلك الجِرم وعجب – وهم قد رادوا الفضاء واكتشفوا سبل النجوم؟ بل إنّ الشمس لم تكن لمثل هؤلاء غير رمز محسوس لإله غير محسوس – لِرَعْ الوالد ذاته من ذاته، المحيط بكلّ شيء والذي لا يحيط به شيء، المبدع الأشكال ولا شكل له، والخالق البدايات والنهايات ولا بداية له ولا نهاية. وما آلهة المصريّين، على وفرتها، سوى صفات متنوّعة لذلك الإله الواحد.

إنّ من يقرأ كتاب الموتى – ولو قراءة سطحيّة – لا يسعه أن يقول غير هذا القول. وأنا أجلّ حكماء المصريّين عن حماقة تجعل من الشمس رمزًا لِرَعْ، ثمّ تخلق الفينكس الذي لم يكن يبصره غير نفرٍ قليل من الناس – وذاك مرّة في خمسة قرون – لتجعله رمزًا للشمس التي يراها كلّ ذي بصر في كلّ يوم. إنّما يرمز الفينكس إلى ما هو أبعد من الشمس وأبقى بما لا يقاس – إلى الحياة في مظهريها كمادّة وروح.

في خواء الظواهر المتقلّبة تعوّد الناس أن يميّزوا بين نوعين من التغيّر. وأن يدعوا الواحد حياة والآخر موتًا. أمّا الفينكس فكأنّي به يقول إنّ الموت والحياة واحد لأنّ مصدرهما واحد. وهو الروح المرموز إليه بالنار. فالنار أبدًا هي هي. تلتهم الأشياء ثمّ تكثّرها وتنوّعها. لكنّها لا تلتهم ولا تكثر أو تنوّع ذاتها. هي النار – أو الروح – تلك الحياة الأوّلية التي يدعوها العلم الحديث «الطاقة» – تنظّم ذرّات الأشياء على اختلاف أنواعها ثمّ تنثرها. فهي متغلغلة في كلّ شيء: في ركام الجليد الطافي على وجه اليمّ مثلها في الشمس. وفي الزناد مثلها في كتلة اللحم النابضة في صدر الإنسان. وهي عندما تلتهم شيئًا تردّه إلى عناصره الأصليّة. فلا تتلاشى بل تنعتق من سجنها الوقتيّ وهكذا عندما يحرق الفينكس نفسه لا «يموت» حتّى لحظة واحدة. لأنّ النار التي هي روحه تبقى كامنة في رماده. وهي التي تعود فتجمع ذرّاته من جديد فتكوّن منها فينكسًا جديدًا. فهو وإن بدّل جسده مرّة في كلّ خمسمائة سنة لا يبدل الروح التي لا يطرأ عليها انقطاع أو تغيير.

ثمّ إنّ الناس يباهون بما يدعونه «نموًّا» و«تقدّمًا». أمّا الفينكس فكأنّي به يقول أن ليس في الحياة نموّ وتقدّم. إذ إنّ كلّ ما ينمو يحمل في داخله جراثيم انحلاله. وكلّ ما ينحلّ لا يدوم. وكلّ ما لا يدوم لا وجود أو لا حقيقة له في ذاته. بل هو يستمدّ حقيقة وجوده من الحقيقة الواحدة التي هي اليوم مثلها أمس. وغدًا مثلها اليوم. فلا يطرأ عليها أقلّ تغيير أو تبديل. وهي لا «تنمو» إذ لا شكل لها ولا قياس، ولا بداية ولا نهاية. وهي لا «تتقدّم» إذ ليس في الوجود ما هو خارج عنها لتتقدّم من ذاتها إليه. والفينكس يقول إنّ السبيل الأوحد إلى «النموّ» هو بالنقصان أو بالتقلّص – بالتجرّد من الأشكال الخارجيّة للوصول إلى الحقيقة الكامنة في الأشكال – إلى النّار التي هي رمز الروح الكائن في كلّ شيء. وإن السبيل الأوحد إلى «التقدّم» هو بالرجوع إلى الوراء – كلّ إلى هليوبوليسه.

أمّا المدّة التي يحياها الفينكس بين التجدّد والتجدّد والتي تختلف باختلاف الروايات بين خمسين، وخمسمائة، وخمسمائة وثمانين، وألف وأربعمائة وإحدى وستين، وسبعة آلاف سنة فالمتفق عليه أنّها ترمز إلى أدوار وتقلّبات فلكيّة. فلنتركها للفلكيّين. غير أنّ فيها معاني لا صلة لها بالأفلاك، فكأنّي بالفينكس الذي يعمر أجيالًا طويلة يقول إنّ أعمار الكائنات موقوفة على جمال حياتها

الباطنيّة وانسجامها مع ذاتها ومع ما حواليها من كائنات سواها. فهي تطول بطول ذلك الانسجام وتقصر بقصره.

هكذا نرى الفينكس الذي لا يسطو على مخلوق من أجل طعامه، ولا يقاتل مخلوقًا في سبيل رفيقة أو عشيقة، يعيش في أُلفة مع كلّ مخلوق. ولأنّه لا يشتهي شيئًا تراه لا يخاف شيئًا بل يحيا في سلام مع كلّ شيء. ومن ثمّ فأنا لا أعرف مثالًا كمثال الفينكس يبيّن لك أن نقاوة الجسد – كنقاوة القلب – قوّة لا تُقهر. فهذا الطائر لا يغذي جسده بنبات الأرض أو حيوانها بل بعطورها. لذلك يعمّر قرونًا طويلة. إلّا أنّ هذا الغذاء، على كلّ ما فيه من طهارة، معرّض للانحلال. ولذاك يعرّض جسد الفينكس للانحلال ولو بعد قرون. فالنظام الأعلى قد حتّم على كلّ ما يولد من مصدر قابل للتغيّر أن يكون عبدًا للتغيّر. وعلى كلّ ما يتغذّى بالمادّة أن يكون غذاء للمادّة. وعلى كلّ ما يأخذ أن يعطي على قدر ما يأخذ. وكلّ ما يشتهي شيئًا خارجًا عن ذاته أن يكون محطًّا لشهوات الأشياء الخارجة عن ذاته.

هنالك صفة تفرّد بها الفينكس عن كلّ الطيور التي ابتدعها الإنسان على شاكلته. فهو أبدًا وحيد لا رفيق له من جنسه. فكأنّه ذكر وأنثى معًا. وكأنّي به يعلن بذلك مع الناصريّ أنّ في الكون أرجاء من الوجود «لا يزوِّجون فيها ولا يتزوّجون». وأنّ الذكر والأنثى عنصران مختلفان في دورة محدودة من دورات الحياة. وأنّ الاثنين يتوحّدان في عوالم غير عالمنا هذا.

ولك إن أنت آنَستَ من نفسك ميلًا إلى التعمّق في بواطن الحياة، أن تقرأ في الفينكس معاني غير التي قرأت. وأجمل ممّا قرأت. إلّا أنّك قد تكون ممّن لا يؤمنون بغير ما يبصرون ويلمسون. وإذ ذاك فالغراب أحقّ بإيمانك من الفينكس. وما الفينكس عندك غير خرافة متهرّئة وأسطورة قديمة. ألا خُذْ غرابكَ وأعطني الفينكس.

ها أنا أُطبق أجفاني فتنهض أمامي من خراباتها مدينة «آنّو» العاتية الزاهية – هليوبوليس – مدينة الشمس. وفي وسطها أُبصر هيكل رَعْ في كلّ أُبّهته وجلاله. وعلى مذبح الهيكل أُبصر طائرًا مغمورًا بنور الشمس وهو يصفّق بجناحيه البديعين تصفيق غبطةٍ وجذل. ها صدره القرمزي يلتهب فتتحوّل كلّ ريشة فيه إلى لسانٍ من نار. ثمّ يتحوّل الطائر كلّه إلى ذبيحة متوهّجة ونور معطّر وعناق محرق بين الحياة والموت. وإذ تهدأ النار فأبصر فينكسًا ناهضًا من كومة الرماد أهتف كالمسحور مع كاهن الهيكل:

«يا رَعْ! أيّها الكائن الجميل الذي يجدّد ذاته في حينه. أيّها الطفل الإلهيّ. يا وريث الأبديّة. يا والد نفسه. يا أمير الأرجاء السفلى ومدير الأحياء العليا. يا إله الحياة. يا ربّ المجد. كلّ نسمة تحيا بشعاعك!»

رِسالة العالَم العربيّ

انصرف العالم العربيّ في هذه المرحلة من تاريخه الطويل إلى لمّ شمله المشعّث وزحزحة كابوس الاستعمار المقيت عن صدره. والنجاح الذي أصابه حتّى الآن يبشّر بنجاح أكبر فأكبر. ولا عجب. فالفرصة مؤاتية. وفي الجوّ ما ينذر بتبدّل عظيم في مجاري الرياح العالميّة. فهناك أرماس تتشقّق عن حياة كلّها نشاط وأمل. ومن فوقها قصور تتصدّع فتغدو عمّا قريب أرماسًا. وهنالك ممالك تتفكّك وتنتثر، وشعوب نثيرة تجمعها الأيّام لتنضّد منها ممالك.

إنّ زمانًا كان العالم يتحدّث فيه عن العرب حديثه عن صفحة أو صفحات مطويّة في التاريخ لزمان أصبح بإذن الله خلفنا. وأكبر دليل على ذلك أنّنا بدأنا نتكلّم في هذه الأيّام – ويتكلّم معنا الغير – عن «العالم العربيّ» كما لو كان عالمًا له كيانه الحسّي والمعنوي. وله وزنه في المعادلات الدوليّة. وكنّا حتّى أمسنا القريب إذا ذكرنا ذلك العالم ذكرنا ولايات متفرّقة من ولايات السلطنة العثمانيّة، أو مستعمرات أو مناطق انتداب ونفوذ لتلك الدولة أو غيرها من الدول الغربيّة. أمّا اليوم فالدّيار العربيّة تهبّ من غفلتها المديدة كأن قد مسّتها عصًا سحريّة. فتتصافح وتتناجى عبر الحدود والمسافات، وتتعارف بعد طول التناسي والتنابذ. وقريبًا تتفاهم وتتآخى. ما في ذلك شكّ. فيكون لتفاهمها وتآخيها أثر بعيد في توجيه المدنيّة العتيدة أن تولد.

ومن أين لي مثل هذا اليقين في مستقبل العالم العربيّ؟

هنالك حالات من اليقين لا تنساق إلى البرهان والتحليل. فقد تُولّدها فينا عن غير وعي منّا لمحات خاطفة نرسلها في أُمور عابرة، مثلما قد تُولّدها أحاسيس أعمق من إدراكنا. من ذلك النوع يقيني بأنّ المدنيّة الغربيّة قد هرمت ودخلت في طور النزع. وأنّ الذين خلقوها لن يستطيعوا تجديد شبابها وردّ غارات الموت عنها. فلا بدّ من موتها ولا بدّ من ولادة مدنيّة غيرها. والقوى التي تخلق المدنيّات ليست قوى الإنسان وحده. وتلك القوى قد أعدّت للمدنيّة الجديدة شعوبًا غير الذين نهضوا بالمدنيّة الحاليّة. فهؤلاء قد أنفقوا جلّ قواهم في خلق تلك المدنيّة والسير بها إلى حيث هي

اليوم. وقد آن لهم أن يستريحوا. وآن للشعوب التي كانت تستريح وتستجمّ على مدى قرون عدّة أن تستفيق وتعود إلى الميدان لتحمل قسطها من رعاية القافلة البشريّة والسير بها إلى هدفها الأبعد الذي ما يزال محجوبًا عن أبصارها، ألا وهو المعرفة الكاملة التي منها وفيها الحرّية الكاملة.

وثمّة يقين آخر يماشي الأوّل ويسانده. وهو أن الحياة تستعين بالشعوب لغايات أبعد من مدارك الشعوب. فشعب انتهت غاية الحياة منه لشعبٌ انتهى أجله من الحياة. مثال ذلك الكلدانيّون والبابليّون والأشوريّون وغيرهم من الأمم والقبائل البائدة. أمّا الشعوب التي تستبقيها الحياة، وإن تركتها زمانًا في حالة ركود أو سُبات، فتستبقيها ذخيرة وعدّة ليوم بعيد أو قريب. ولكنّه يوم لا بدّ من مجيئه. والشعوب العربيّة في جملة الشعوب العريقة في القدم التي احتفظت بها الحياة ذخيرة وعدّة للعالم الجديد الذي تتمخّض عنه هذه الأيّام الحبلى بالمفاجآت والعجائب. ولو لم يكن للحياة مأرب بعيد من تلك الشعوب لأبادتها من زمان.

ولا يشكّنّ عربيّ قطّ في أنّ أبناء جلدته ولسانه مدعوّون للمساهمة إلى حدّ بعيد في بنيان العالم الجديد. ولكن ليحذرنّ كلّ عربيّ من التبجّح والاعتزاز والمنّ بما قدّم أسلافه من قبل، وبما هو مقدّم اليوم أو غدًا. فالمدنيّات ليست من صنيع شعب دون باقي الشعوب. بل هي نتيجة لجهد متواصل يقوم به الناس من كلّ جنس على وجه البسيطة. وللأموات قسط من ذلك الجهد أين منه قسط الأحياء. وأمّا أن يمنّ شعب على شعب بما قدّم وبما هدم وشاد فمهزلة قد نستلطفها من صبية يلعبون ويتنافسون ويتفاخرون، ولكنّنا نستقبحها من رجال يعملون مؤمنين بخطورة العمل الذي يعملون. فالناس مدينون أبدًا للناس من أيّ جنس كانوا وفي أي زمان ومكان عاشوا. وتصفية الحساب فيما بينهم قضيّة يرتدّ عنها العقل قانطًا مدحورًا. وهي قضيّة تتولّاها الأقدار لا نحن.

نعم سيساهم العالم العربيّ مساهمة ذات بال في بنيان المدنيّة الجديدة. أفليس من حقّنا — بل من واجبنا — أن نتساءل عن نوع تلك المساهمة وعن مداها واتجاهها؟ ذاك مع العلم بأنّ الكلام في هذه الأمور قد يبدو سابقًا لأوانه، وقد لا يعدو حدود التكهّن والتمنّي. فما من مدنيّة قامت إلى اليوم وسارت على خطط رسمها الناس من قبل سواء أكان الراسمون أولياء أم أنبياء، وفلاسفة أم علماء. فللمدنيّات سبل تتحدّى التخطيط والتصميم، والسوق والقَود، حتّى كأنّها تسير بالناس ولا يسيرون بها، وكأنَّ لها مشيئة من وراء مشيئة الإنسان. ولكنّها، من غير شكّ، تتأثّر بما يفكّر به الناس ويعملونه ويشتهونه. وإنّه لمن هذا القبيل لا من سواه يحلو لنا أن نتكلّم عن مساهمة العالم العربيّ في المدنيّة الآتية لعلّنا نوفَّق منذ الآن إلى توجيهها ولو بعض التوجيه لما فيه خيرنا وخير العالم.

لنعترف قبل كلّ شيء بأن المدنيّة المزمعة أن تولد لن تكون المدنيّة المثلى التي حلم بها الشعراء والأنبياء منذ آلاف السنين. فالإنسان ما يزال قاصرًا بمداركه ومشاعره عن خلق تلك المدنيّة. ولكنّه ليس بقاصر عن التفكير في العلل التي تفتك بمدنيّاته، ولا عن الطموح إلى القضاء عليها.

فما هي العلّة المزمنة التي أودت بالمدنيّات السالفات وتوشك أن تودي بالمدنيّة الحاضرة؟

إنها الهمجيّة. همجية الكهف والغاب والأسلحة المنحوتة من الصوّان. فجذورها العتيّة ما برحت متأصّلة في قلوب الناس. فلا الفيدا ولا التوراة ولا الإنجيل ولا القرآن ولا الفلسفة العالميّة بأنواعها تمكّنت حتّى اليوم من القضاء عليها، وإن تكن قد لطّفت من خشونة مظاهرها إلى حدّ ما. ونحن لو أنصفنا لما تكلّمنا عن مدنيّاتنا بل عن همجيّاتنا. فقلنا الهمجيّة البابليّة – مثلًا – والهمجيّة المصرية، واليونانيّة، والرومانيّة، والعربيّة، والأوروبيّة، ثمّ ميّزنا الواحدة عن الأخرى بقولنا: إنّها أقلّ أو أكثر همجيّة منها.

لست أُنكر على المدنيّة الحاضرة أعمالًا جبّارة قامت بها. فقد كانت – وأكاد أقول رحمة الله عليها – مقدامة إلى أقصى حدود الإقدام، ومغامرة إلى أقصى حدود المغامرة. فما وفّرت وقتًا ولا مالًا ولا عناء ولا أرواحًا في سبيل الترفيه عن البشريّة المكدودة. وقد كان في مستطاع البشريّة أن تحيا حياة رفاهية وهناءة لو أن المدنيّة علّمتها كيف تنعم بما أخرجته لها من كنوز الأرض وما ذلّلته لخدمتها من العناصر، أو لو أنّها فسحت لها من الوقت ما يكفيها لكي تتعلّم.

ولكنّ البشريّة تتململ وتئنّ وتستغيث. ولماذا؟ لأنّ ما خلقته لها المدنيّة بيدها وبدماغها عادت فأفسدته بقلبها. وقلبها لا يزال قلب البربري لا يؤمن بحقّ غير حقّه، ثمّ لا يستند في تحصيل حقّه إلى شيء أفضل من المكر والقوّة. ولا يخطر له ببال أنّ حياته إنّما تقوم بنشاط غيره قبل أن تقوم بنشاطه، وأنّ القوّة تسحقها القوّة والمكر يقهره المكر. فعليه، إن هو شاء المحافظة على حياته أن يحافظ على حياة غيره فهي دعامة لحياته، وأن يجعل قوّة النّاس كلّهم قوّته.

ومن ثمّ فالمدنيّة قد شغلت الناس بالمزاحمة والمنافسة والنزاع للحصول على «بركاتها» إلى حدّ أنهم لا يجدون من وقتهم متسعًا للاستمتاع بتلك البركات.

ولا أقول: إنّ المدنيّة الحاضرة أرهقتها المادة، وإنّها براء من «الروح». وإنّما أقول إنّ روحها روح بربريّ وثنيّ. فعلى العالم العربيّ، وهو مدعوٌّ للقيام بقسط كبير من أعباء المدنيّة الجديدة، أن يأخذ للأمر عدّته منذ الآن كيما تكون المدنيّة الجديدة أقلّ همجيّة من التي سبقتها.

لذلك كان لزامًا على العالم العربيّ أن يطهّر قلبه قبل كلّ شيء من الذلّ. ومتى قلت الذلّ قلت الكبرياء والمجد الباطل. والذلّ وحبّ المجد الباطل آفتان تقرضان أوصال الشرق من زمان وهو القائل بأنّ الإنسان صورة الله ومثاله. فكيف نذلّه، أم كيف نكبر عليه؟

ثمّ على العالم العربيّ أن يطهّر قلبه من شهوة الانتقام والأخذ بالثأر. فهي إن لاقت بابن البادية فلا تليق بمن مهمّته بناء مدنيّات جديدة. وليس يثأر من عدوّه إلّا من أحسّ نفسه أضعف من عدوّه. أمّا القويّ فتأبى عليه قوّته معاداة أيّ إنسان.

وعلى العالم العربيّ، وفيه تلتقي سائر الأديان، أن يسبغ من أديانه على المدنيّة الجديدة ألوانًا ما عرفتها المدنيّة الحاضرة. فلون من اللطف، ولون من التسامح، ولون من التعاون، ولون من الغفران، ولون من الأخوّة الإنسانيّة، ولون من الإيمان بأنّ وراء كلّ مشيئة إنسانيّة مشيئة ربّانية لها الكلمة الفصل في كلّ شيء. لأنّ الله أغنى من أن نغنيه بتعصّبنا له، وأرفع من أن نرفعه بعبادتنا، وأقدر من أن ندعم قدرته بكرهنا واضطهادنا لمن لا يعبدونه على شاكلتنا.

وعلى العالم العربيّ أن يعمل على لمّ شتات الإنسانيّة بمثل الحماسة التي يعمل بها اليوم على لمّ شتاته. حتّى إذا التأمت الإنسانيّة، ضاع فيها العربيّ والاعجميّ وأصبح الكلّ عائلة واحدة مسكنها الأرض ومطمحها السماء. وأمّا قائدها ومعلّمها فالذي لولاه لما كانت الأرض ولا السماء.

تلك هي رسالة العالم العربيّ. إن هو أحسن تأديتها أحسن إلى نفسه فأحسن إليه العالم. وإن هو أساء تأديتها أساء إلى نفسه فأساء إليه العالم.

مدرَسة الغَد

(في اليوبيل المئويّ لمدرسة التجهيز الأرثوذكسيّة في دمشق 27 حزيران سنة 1947)

في هذه المدينة التي تشيب على أهدابها القرون وعينها في شباب دائم، وتغرف من راحتيها الأجيال وراحتاها مليئتان أبدًا بالخيرات، وتفنى في أحضانها الممالك وقلبها يهزأ بالفناء – أجل. في هذه المدينة المتربّعة على صدور آلاف السنين ليس بمستغرب أن يقوم معهد دراسيّ يستطيع أن يلتفت إلى الوراء فيبصر ظلّه ينبسط على مدى عشرة من العقود. بل من المستغرب ألّا تكون فيها معاهد تنبسط ظلالها على مدى عشرات عشرات العقود.

ولكن قرنًا كاملًا تقطعه مدرسة في هذه المدينة أو في سواها من بلاد شرقنا العزيز أمر ليس باليسير. وهو جدير بأن نحتفل به وأن نقف عنده متأمّلين ومؤمّلين. فعمر يتناول نصف القرن الغابر ونصف الحاضر لعمر حافل بجسيم الأحداث وجليل الأخبار. وليس من المغالاة في شيء قولنا إنّ المائة الأخيرة من سنيّ البشريّة تكاد توازي بقيمتها كلّ ما قبلها من السنين. ففي هذه الفترة الوجيزة من الزمان قد سجّل الفكر البشريّ نشاطًا ما سجّل مثله في كلّ ما سلف من تاريخه. وإذا بعالمنا يتبدّل بسرعة خاطفة. فدُول تدول وأخرى تُولد. وأوهام تغدو حقائق وحقائق تتحوّل أوهامًا. وعقائد تبلى وغيرها يتجدّد. وصداقات تغدو عداوات وعداوات صداقات. وإذا بنا نرود مفاوز الجوّ، ونهتك الكثير من الحُجُب التي تحجّبت بها الأرض والسماء عن أبصارنا. حتّى ليخيّل إلى البعض من المتهوّسين والمغرورين أنّ الإنسان يوشك أن يقبض على ناصية الموت والحياة.

لقد كان للمدرسة اليد الأولى، بل اليد الطولى، في ذلك التطوّر السريع. فهي التي احتضنت نتاج الفكر البشريّ على مرّ العصور. وهي التي صانته من عاديات الأيّام والليالي. وهي التي ما برحت تتسلّمه من جيل سابق لتسلّمه إلى جيل لاحق. فما تضنّ به على راغب أو طالب. ولولاها لما استطاعت البشريّة أن تبني يومها على أمسها، وغدها على يومها بنيانًا متراصًّا يتّسع ويستدير ويعلو عامًا تلو عام وجيلًا إثر جيل. وأن تجعل من حياتها الفكريّة والماديّة سلسلة مترابطة الحلقات

تبتدئ الواحدة حيث تنتهي التي قبلها. ولولاها لكانت البشريّة كرقّاص الساعة لا ينثني يعيد كلّ حركة من حركاته ضمن مدى هو هو وبسرعة هي هي.

فلا عجب أن يُكبر الناس شأن المدرسة وأن يسبغوا عليها شيئًا من التقديس والتأليه، وأن يفخروا بها ولا فخر الطاووس بطيلسانه. فهي عندهم الركن الركين الذي تقوم عليه بناية مدنيّتهم وحضارتهم. وهي الآنية المقدّسة للحقّ المقدّس، والينابيع الصافية للمعرفة الصافية، والمناهل العذبة للحرّية العذبة، والمنارات التي لولاها لكان الناس يتخبّطون في دياميس الجهل والعسف والشقاء. حتّى إنّ إيمان الناس بعصمتها وقدرتها وجلالها يكاد يضاهي – أو هو يفوق – إيمانهم بعصمة الله وقدرته وجلاله.

بل ما أظنّ أنّ التاريخ عرف زمانًا كان فيه الناس ينذرون أولادهم لله بمثل الإيمان الذي ينذرون به فِلَذ أكبادهم للمدرسة في هذا الزمان. فهم يقودونهم إلى مقاعد المدرسة بالكثير من الورع والجذل، شاعرين أنهم يؤدّون واجبهم نحو بنيهم وبناتهم على أتمّ وجه، ومؤمنين بأنّهم سيخرجون منها رجالًا ونساء أكفياء للقيام بكل أعباء الحياة.

إنّ مغالاة الناس في تقدير المدرسة مثل هذه المغالاة هي التي جنت على المدرسة وعلى الناس من حيث لا يعلمون. إذ أصبحت المدرسة في نظر الكثير منهم شبه عصًا سحريّة بها تُفتح الأبواب المرصودة، وتُكشف الكنوز المخبوءة، وتُدرأ المكاره، وتُدرَك الشهرة والعظمة، وتُقتنص السعادة في الدنيا والغبطة في الآخرة. فكان من الطبيعيّ أن تعتزّ المدرسة وتتكبّر وتتجبّر. وأن تقيم لسحرها أثمانًا لا يقوى على دفعها غير ذوي اليسار وغير المؤمنين بقدرتها العجائبيّة من متوسّطي الحال، ثمّ أن تشحن برامجها بتعاويذ لا نهاية لها بعضها يجدي وأكثرها لا يجدي.

فهل كانت المدارس، كما عرفناها إلى اليوم، نورًا صافيًا؟ أم أنّ دخانها كان وما يزال غالبًا على ما في مواقدها ومصابيحها من نار ونور؟

هل خرجت الإنسانيّة من مدارسها والحقّ في روحها، والحريّة في قلبها، والمعرفة على شفتيها، والنور في عينيها؟

إذنْ ما هذا الذي أشهد وتشهدون من تفكّك في مفاصلها، وبلبلة في أفكارها، وتسمّم في قلبها، وتورّم في شفاهها، وتقرّح في أجفانها؟ وهي ما عرفت في كلّ حياتها عهدًا كانت فيه أوفر مدارس منها في عهدها هذا.

أنقول إنّ الناس كلّما كثرت مدارسهم كثرت ويلاتهم ثمّ نعكس ما نقول؟

أنقول إنّ في مقاعد المدرسة جراثيم خفية خبيثة ما تنفكّ تفسد على الدارس غايته من درسه وعلى المدرّس قصده من تدريسه، وإنّ في بطون الكتب التي يبحث فيها الدارسون عن المعرفة عفاريت ماتفتأ تستر عنهم المعرفة بألف ستار وستار؟

أم نقول إنّ المدرسة ليست سوى مختبَر من المختبرات العديدة التي ابتدعها الإنسان أملًا أن يهتدي بها إلى حقيقة نفسه وحقيقة حياته؟

ذلك، لعمري، هو القول الحقّ. فالحياة البشريّة منذ البداية حتّى اليوم ما كانت غير سلسلة طويلة من الاختبارات التي ما انتهت بعدُ بنا إلى نتيجة أو نتائج حاسمة ثابتة نستطيع أن نكتفي بها ونطمئنّ إليها. وهذه الاختبارات من عقليّة وروحيّة ومادّيّة تكاد لا تحصى. والمدرسة هي المختبر الذي تحمل إليه الإنسانيّة خلاصة اختباراتها لتمحيصها وتنسيقها وتنظيمها وتسهيل نقلها من جيل إلى جيل.

فالمدرسة مختبر لا أكثر ولا أقلّ. وهي كغيرها من المختبرات لا تحمل إلى المختبِر أكثر ممّا يحمل إليها. فما دام الإنسان مجموعة متناقضات دامت المدرسة مجموعة متناقضات. وما دام الإنسان يتلمّس طريقه ما بين الشكّ واليقين، واليأس والأمل، والفوز والفشل، دامت المدرسة ورقةً في مهبّ رياح تتقاذفها شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا، ودام هدفها يتنقّل من هنا إلى هناك إلى هنالك. فكأنّه الظلّ لا يثبت في شكل ولا يستقرّ على حال.

إذنْ كان من العبث أن نرجو من المدرسة ما ليس في مستطاعها تقديمه. كأن نطلب منها المعرفة الصرف، والنور الصافي، والحقّ المطلق، والحريّة الكاملة. أو أن نؤمن بعصمتها وأن نحسبنا بلغنا بها ذروة الكمال. فهي ما خرجت يومًا عن كونها مختبرًا. والأساليب التي نتّبعها اليوم في هذا المختبر أو ذاك قد تتغيّر في الغد. وليس بمستبعَدٍ أن تُطرح برمّتها خارجًا وأن يُستعاض عنها بسواها. فلا بدّ من يوم تنقلب فيه مناهج التعليم رأسًا على عقب. إذ لا بدّ من أن يشعر الناس بحاجتهم إلى أكثر من مهندسين وأطبّاء وقضاة ومحامين وشعراء وفنّانين وحاملي شتّى الشهادات من الابتدائيّة حتّى الدكتوراه. فالإنسان كان وسيبقى إنسانًا من قبل ومن بعد أن كان ذا حرفة أو مهنة أو وظيفة. ومهمّته الأولى والأخيرة هي أن يعرف الإنسان.

وإذنْ كانت مهمّة المدرسة أن تدلّ الإنسان على مهمّته، ثمّ أن تسهّل له القيام بأعبائها فتجعل من كلّ درس درجةً في السلّم المؤدّي إلى معرفة الإنسان، أو مشكاةً تنير له جانبًا من طريق المعرفة. أمّا الدروس التي تصرف فكر الطالب وقلبه عن مهمّته كإنسان فمن الخير نبذها. لأنّها تستنفد قواه وتعرقل خطاه وتتركه فريسة لكلّ شهوة جامحة، وخيال شارد، وفكرة موبوءة بأنّ الحياة متعة هاربة، أو سلعة نادرة لا يظفر بها إلّا الأغنياء والأقوياء.

سيشهد الزمان الآتي – مثلما شهد الزمان الماضي – ثورات بغير عدّ من سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة ودينيّة وسواها. ولعلّ أعظمها شأنًا وأبعدها شأوًا وأجزلها نفعًا للبشريّة ستكون الثورة التربويّة. إذ تصبح المدارس في متناول الكلّ بغير استثناء، وتمتدّ صفوفها من المهد حتّى اللّحد. فتكون بمثابة معامل يدخلها الإنسان الخام مجبولًا بأدران الجهل والجشع والخوف والضغينة والكفر

والدعارة وما إليها فيخرج منها طاهرًا من كلّ ما يشوّه صورة الله في الإنسان، عارفًا هدفه، مؤمنًا بقدرته على الوصول إليه، باسطًا كفّ الأخوَّة لجميع الناس، وشاعرًا بأنّ كلّ أمجاد الأرض بُثور وقروح إزاء سناء مجد الإنسان. وإذ ذاك فأرضنا ليست ميدان صراع بين الإنسان والإنسان بل سلّم نرقى به إلى السماء. لا بل سماء تحسدنا عليها الملائكة.

تمنّيت لو نكون في هذا الشرق أوّل النافخين في بوق تلك الثورة. فنحن إن نكن فقراء بالمال لسنا فقراء بالرجال. ونحن إن لم تكن لنا الجيوش الجرّارة والأساطيل البحريّة والجويّة فلنا الإيمان بالله وعدله وجماله وجمال الإنسان الذي برأه على صورته ومثاله.

من سهولنا وجبالنا، ومن أجوائنا وآفاقنا انطلق ذلك الإيمان في الأرض. ولكن أبناء الأرض يكادون يغرقونه في مستنقعات من البغض والشحناء وفي بحور من الدمع والدم. ونحن أوْلى بالانتصار له والذود عنه. فهو وليد أرواحنا، وربيب أفئدتنا، والحُلم الحلو خَلْفَ أجفاننا. فلنجعلنّه المعلّم الأول في مدارسنا، والإمام الأكبر في معابدنا، والمهندس الأعظم في معاملنا، والحارث المتقدّم في حقولنا، والهادي الأوحد إلى الحريّة التي لا تُشترى بدم أو بدمع أو بمال، والتي في قلبها الحقّ، وفي حقّها الجمال، وفي جمالها الكمال.

نحنُ أحسَن أم آباؤنـا؟

الناس في حركة دائمة، لأنّهم بعضٌ من كون لا ينفكّ في حركة دائمة. والناس إذ يتحرّكون بأرجلهم وأيديهم، يتحرّكون كذلك بأحاسيسهم وأفكارهم وأذواقهم وأحلامهم، وكلّ ما يدخل في بنيان حياتهم من تفاصيل لا تحصى ولا تدرَك. ولو أنّ حركتهم كانت في اتجاه واحد، وكنّا واثقين من نقطة انطلاقها، والنقطة التي تهدف إليها، لكان من السهل أن نقيس مقدار تقدّمها.

ولكن الناس ما تحرّكوا شرقًا، إلّا تحركوا غربًا، ولا ساروا إلى الشمال، إلا ساروا إلى الجنوب. ولا انجذبوا إلى أعلى، إلّا انجرفوا إلى أسفل. ومن ثمّ فنقطة الاندفاع ونقطة الوصول ما تبرحان في عالم الشكوك والظنون. اللهمّ إلّا عند الذين أُوتوا اليقين عن طريق الكشف والإلهام. فكيف لنا إذن أن نجزم بأن هذا الجيل أحسن من جيل قبله، وأن جيلًا يأتي بعده سيكون أحسن منه؟

إنّ في كلمة «التقدّم» ما يوحي إلى الكثير من الناس بأنّ الحركة الإنسانيّة تسير في شكل خطوط أفقيّة. وإنّ في كلمة «الرقيّ» ما يحمل الآخرين على أن يصوّروا تلك الحركة في شكل خطوط عموديّة. ولو سألت أحد أولئك أو هؤلاء عن مقدار تقدّم الناس أو رقيّهم في خلال القرن الأخير ليس غير، لراحوا يقدّمون لك التقاويم الطويلة بالاختراعات والاكتشافات والصناعات والعلوم الحديثة. وما من شكّ يساورهم أبدًا في أن إنسانيّة تطير في الهواء، هي أحسن حالًا بما لا يقاس من إنسانيّة تمشي على الأرض. وإنسانيّة تتكالم عبر المحيطات والقارّات هي أفضل من إنسانيّة لا يمتدّ صوتها إلى أبعد من مجال السمع العادي. وإنسانيّة تدمّر مدنًا بكلّ من فيها وما فيها بقنبلة واحدة هي أبعد شأوًا في التمدّن من إنسانيّة تقضي الشهور والسنين في حصار قلعة واحدة. وإنسانيّة تداوي التهاباتها بعقار مستخرج من الأعفان، هي أقلّ آلامًا من إنسانيّة تداوي التهاباتها بالحشائش ممزوجة ببعض الصبر والإيمان.

ثمّ هنالك من يتخيّل الحركة الإنسانيّة في شكل لولبيّ أو حلزونيّ. وهؤلاء يرون الناس يسيرون في شبه دوائر تدور بعضها فوق بعض، فتتقارب حتّى تكاد تحسبها متشابهة متلاصقة. ولكنّها في

الواقع تتباعد تباعدًا تدريجيًّا يبدو ضئيلًا بين الدائرة الواحدة والتي تليها. ولكنّه يصبح جليًّا وفادحًا بين الدائرة الأولى والدائرة العاشرة أو العشرين. فكيف بالدائرة الألف؟ ومن هنا كان الوهم السائد في عقول الكثير من الناس بأنّ التاريخ يعيد نفسه. فقد تتقارب دورتان من دورات الزمان وتتشابهان، إلّا أنهما لن تتلاصقا أبدًا، ولن تكون الواحدة نسخة طبق الأصل عن الأخرى.

ثمّ هنالك من يرى الحركة الإنسانيّة في شكل دوائر، كالتي تحدثها على وجه بِركة حصاة تطرحها. والذين يرون هذا الرأي يقيسون التقدّم بالتمدّد المتوازي في جميع الجهات دفعة واحدة. ولكنّه تمدّد على وجه مسطح.

تلك هي المقاييس الأكثر شيوعًا في أذهان الناس كلّما ذكروا النموّ أو الرقيّ أو التقدّم. أمّا ما دعوته «نقطة الانطلاق» لتلك المقاييس، فهي في الغالب إنسان وهميّ لا يملك شيئًا من الذكاء والفطنة والذوق والمعرفة والشوق إلى الحق والعدل والحرية وما إليها. ولكنّه يملك القدرة على «النموّ»، فلا يلبث أن ينمو ذكاؤه وفطنته وذوقه ومعرفته على كرّ السنين.

والحقيقة – كما تتراءى لي – هي أنّ النموّ في عالم كرويّ أو بيضويّ، كالعالم الذي نحن فيه، لا يتمّ في اتّجاهات أفقيّة أو عموديّة أو لولبيّة، بل في شكل كرويّ أو بيضويّ. فهو نموّ فقّاعة الصابون تنفخ فيها فتتمدّد تمدُّدًا متوازيًا في جميع الجهات. ولو كان الإنسان بجسده ليس غير، لحقّ لنا أن نقيس نموّه بالطول والعرض. ولكنّ الإنسان بمداركه وأحاسيسه قبل أن يكون بعظامه وعضلاته. وليس من الاتّفاق الأعمى أن يكون رأس الإنسان – وهو مركز الإدراك – بيضويّ الشكل. ولا من المصادفات العارضة أن يكون قلبه – وهو مركز الإحساس – بيضوي الشكل كذلك. فالناس، أفرادًا وجماعاتٍ، إنّما ينمون بمداركهم وأحاسيسهم نموّ الفقّاعة، أو قُل نموّ اللؤلؤة في المحارة. فاللؤلؤة التي تبدأ حياتها ذرّة من الرمل تنمو طبقة فوق طبقة، أو قشرة فوق قشرة، وهي في كلّ درجات نموّها تحتفظ بشكلها الكرويّ، فنموّها شيء من التفتّح أو الانتفاخ، ولكنّه تفتّح يعلو ويهبط، ويمتدّ ذات اليمين وذات اليسار في نسبة واحدة كتفتّح فقّاعة الصابون!

وإذا لاحقنا مثال اللؤلؤة كمثال للنموّ الإنسانيّ، كان لا بدّ لذلك النموّ من ذرّة ينطلق منها في سائر الجهات، كذرة الرمل التي تتكوّن من حولها اللؤلؤة. فما هي الذرّة التي تتفتّح أو تنتفخ في الإنسان فتجعل منه كائنًا ينمو ولا يقف في نموّه عند حدّ؟

الإنسان، في عقيدتي، نطفة ربانيّة (وليغفر المتعنّتون تعبيرًا كهذا أسوقه على سبيل المجاز). وهذه النطفة تنطوي على كلّ قوى الربوبيّة، من معرفة كلّ شيء إلى القدرة على كلّ شيء، ومن الكينونة في كلّ زمان إلى الكينونة في كلّ مكان، على حدّ ما تنطوي أيّة بذرة على جميع صفات النبتة التي ولدتها. فمجالها للنموّ لا حدود له، لأنّ الله لا حدود له. وما الحياة والموت في عوالم المحسوسات، التي تكاد تكون بغير نهاية، سوى التربة الصالحة المعدّة منذ الأزل لاحتضان تلك

النطفة وتفتّحها عن الأسرار والعجائب التي انطوت عليها. وما الزمان بآزاله وآباده سوى «المدى الحيويّ» لنموّ تلك النطفة. فما أجهل الذين يقيسون مدى الحياة الإنسانيّة بالأعمار نطويها بين المهد واللّحد.

وعلى هذا المقياس نستطيع إلى حدّ ما أن نقيس نموّ الأفراد والجماعات، ومن ثمّ نموّ الإنسانيّة جمعاء باتساع الأفلاك التي تدور فيها.

ومثلما يقاس نموّ الشجرة بأعلى غصن فيها، هكذا يقاس نمو الإنسانيّة بأوسع فلَك يدور فيه أعظم عبقريّ من عباقرتها في أيّ فرع من فروع جهادها.

لقد ظلّت اليونان زعيمة الفكر والفنّ عصورًا طوالًا. فالفَلَك العلمي الذي كان يدور فيه أرسطو ما برح أوسع الأفلاك العلميّة حتّى أواسط القرن الماضي. وإذن فالبشريّة ما تقدّمت تقدّمًا علميًّا محسوسًا في خلال عشرين قرنًا أو أكثر. وبقيت هندسة إقليدس أساس كلّ هندسة بشريّة حتّى زمان قريب. وإذن فالبشريّة كانت تدور كلّ هذه الأجيال ضمن فلك إقليدس. كذلك قولوا في أفلاطون وفلكه الفلسفيّ. وما أدري إذا كانت الإنسانيّة حتّى اليوم قد خرجت في تفكيرها إلى فلك أوسع من ذلك الفلك. وكذلك قولوا في الأدب، فالفلك الذي كان يدور فيه أرستوفانس بقي أوسع الأفلاك الأدبيّة حتّى شكسبير. وإذن فالناس ما تقدّموا في حرفة الأدب من زمان أرستوفانس إلى زمان شكسبير. وما أظنّهم تقدّموا قيد أنملة من بعد شكسبير، على الرغم من عباقرة أمثال جيتّه ودوستويفسكي.

ثم ما إخال فنّ التمثيل في الحجر قد تقدّم تقدّمًا يُذكر من أيّام فيدياس، ولا فنّ التصوير منذ دافينتشي وميكال أنجلو، ولا فنّ الموسيقى من بعد بتهوفن، ولا فن البناء منذ البارثينون، إلّا إذا اعتبرنا ناطحات السحاب في تصعيدها وتقاعسها نوعًا جديدًا من البناء.

أمّا في السياسة والاقتصاد والاجتماع فإنسانيّة اليوم ما تزال تدور ضمن آفاق أو أفلاك رسَمَتْها من زمان. فهي اليوم في سياستها مثلها فيما مضى: حاكمة ومحكومة. وليس بين أنواع الحكم التي تمارسها نوع واحد لم تختبره من قبل، من ملكيّة مطلقة، إلى ملكيّة مقيّدة، إلى جمهوريّة، إلى شبه فوضى. وهي في اقتصادها ما خرجت عن نطاق الملكيّة، سواء أكانت ملكيّة فرديّة أم ملكيّة إجماعيّة. ولا عن نطاق المكافأة بحسب الكفاءة، سواء أكانت كفاءة فرد أم كفاءة عائلة أو دولة. ولا عن نطاق الربح والخسارة. أمّا ميزان الكفاءة فما يبرح في مهبّ الريح. ومثله ميزان الربح والخسارة. وإن يكن من فرق بين إنسانيّة اليوم وإنسانيّة الأمس من هذا القبيل فهو فرق في الكم لا في الكيف. فقد يكون عصرنا أبعد عن الإقطاعيّة وأقرب إلى الاشتراكيّة من عصور خلت. ولكن الإقطاعيّة والرأسماليّة والاشتراكيّة والشيوعيّة أفلاك اقتصادية عرفتها الإنسانيّة من قبل على درجات متفاوتة، وهي ما تزال تدور ضمنها، فلا توسّع، ولا تقدم. وهذا القول يصحّ في أفلاكها

الاجتماعيّة التي ما توسّعت شبرًا واحدًا منذ آلاف السنين. فالناس ما يبرحون طبقات فوق طبقات. وتفكيرهم الاجتماعيّ ما تزال تسوده فكرة الأسرة والعشيرة، التي توسّعت فصارت أمّة، ولكنّها ما توسّعت إلى حدّ أن تشمل الإنسانيّة بأسرها، ومن بعدها الكون بأسره.

بقي أن أقول كلمة في أفلاكنا الدينيّة أو الروحيّة، وهذه تشمل أخلاق الناس في معاملتهم لأنفسهم، ولبعضهم البعض، ولغيرهم من الكائنات على أنواعها، وفي علاقتهم مع القدرة التي يعتقدونها مصدر الحياة في الكون.

لو سلّمنا بأن الناس قبل موسى كانوا يعبدون المادّة دون الروح – وهو أمر يصعب التسليم به – لحقّ لنا القول بأن موسى كان أوّل من وسّع آفاق الناس الدينيّة، إذ جاءهم بإله غير منظور، خَلَق السماء، والأرض وما فيها ومن فيها. وما برح يسوس الناس بحكمته، ويتعهّدهم بالخير إن هم أطاعوه، وبالويل إن هم عصوا أوامره. لكنّ إله موسى كان إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، أي إله بني إسرائيل أوّلًا وآخرًا. وكان همّه الأكبر أن يقود العبرانيّين إلى المجد والسعادة في الأرض.

وجاء المسيح، فردّ آفاقنا الدينيّة إلى الأزل من جهة وإلى الأبد من الأخرى. فجعل الله «أبًا» لكلّ الناس على اختلاف أجناسهم. وجعل الناس إخوة متساوين في محبّة ذلك الأب الذي يشرق شمسه على الأشرار والأبرار بالسواء، ويفرح بنعجة واحدة تضلّ على القطيع ثمّ تعود إليه فرحه بالقطيع كلّه. وقد وعدهم «بالملكوت السماويّ» إن هم أحسنوا الإيمان والرجاء والمحبّة. وأنذرهم بالجحيم إن هم استسلموا للشهوات والمخازي.

ثمّ جاء محمّد، فقال بوحدانيّة الإله الذي أعلنه موسى. ولكنّه ما استأثر به للعرب دون سواهم في الأمم. وقال بالبعث وبالثواب والعقاب، وبجنّة للصالحين وجحيم للأشرار. وهكذا اتفقت الديانات الثلاث في أُسسها من حيث مصدر الإنسان ومآبه وإن اختلفت في تفاصيلها. فالإنسان من الله وإلى الله. والناس كلّهم عيال الله. والإيمان، والصدق، والرفق، والعفّة، والمحبّة، ونكران الذات، وقتل الشهوات، طرق للخلاص وللحظوة بغبطة النعيم.

ولو تساهلنا قليلًا، وجمعنا ما بين الديانات التي انبثقت من شرقنا الأدنى وبين التي عرفتها فارس والهند والصين، لما ضاق بنا الفلك الديني الذي ما برحت تدور فيه الإنسانيّة منذ آلاف السنين من غير أن تخرج عن نطاقه. وإذن فالإنسانيّة ما تقدّمت في دينها وأخلاقها منذ القدم، بل إنّ هناك من يجزم بأنّها عادت القهقرى.

وهكذا يبدو لي أنّ الإنسانيّة ما وسّعت الأفلاك التي تدور فيها إلّا في علومها التطبيقيّة، أمّا آدابها وفنونها وعلومها السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، وأمّا أخلاقها الدينيّة، فما تزال تدور في أفلاك بَلَغتها من زمان وما تخطّتها قيد شعرة.

أنقول إذن إنّ الإنسانيّة ما تقدمت في خلال عشرات القرون؟

كلّا. فالإنسانيّة ليست بعباقرتها فحسب. بل هنالك المجموع البشريّ الهائل بعدّته وعدده، الذي يدور كلّ فرد منه في فَلَكه، ثمّ يدور الكلّ ضمن أفلاك خطّتها العباقرة عبر الزمان والمكان. وهذا المجموع هو الذي أفاد أكبر الإفادة من اختراعات العلم واكتشافاته، من فنّ الطباعة حتّى الراديو، ومن تسخير البخار والكهرباء حتّى تسخير الألكترون والبروتون. فهذه كلّها، بتذليلها المسافات والعقبات، قد وسّعت آفاق الجماهير العقلية، وجعلتها تدور في أفلاك أرحب من أفلاك كانت تدور فيها حتّى أمسنا القريب. فمن هذا القبيل – لا من قبيل وفرة الهناءة الماديّة والطمأنينة الروحيّة – يصحّ لنا القول: نحن أحسن من آبائنا.

قيمَة الإنسان

يغلي العالم في هذه الأيّام ويفور وأخشى أن سيعقب الغليان والفوران انفجار فظيع ودمار هائل. وأنا إذ أقول «العالم» أعني عالم الإنسان لا أكثر. أمّا السماء بآزالها وآبادها، ومعالمها وأبعادها، وأمّا الأرض بجمادها ونباتها وما دون الإنسان من حيوانها، فهذه كلّها لا غليان فيها ولا فوران، ولا خوف عليها من الانفجار والدمار. وقد يكون لها أجل محتوم، إلّا أنّه أجل بعيد ومكتوم. والذي نراه اليوم من مظاهرها وحركاتها، ونسمعه من أنفاسها وأصواتها هو عين ما رآه وسمعه أجدادنا وأجداد أجدادنا منذ آلاف آلاف السنين. فلا السماء محمومة ولا الأرض مهمومة. لا تلك تغلي ولا هذه تفور. أمّا البشريّة فمحمومة ومهمومة، وهي في غليان وفوران. فعلامَ هذا الغليان؟ وفيمَ هذا الفوران؟

لذلك أسباب شتّى، منها الظاهر ومنها الخفيّ، ومنها القريب ومنها البعيد. ولعلّ أظهرها وأقربها هو أنّنا في خلال ربع قرن واحد استطعنا أن نعمل ما عجزت عن عمله جميع القرون الخوالي. إذ قد خلقنا لنا أجنحة تنهزم من وجهها المسافات، فالريح أبطأ من أن تجارينا. واتخذنا من الأثير ألسنة لأفكارنا، فالبرق لا يسبق كلمة نرسلها من مشارق الأرض إلى مغاربها. وإذا بالأرض تتقلّص، وبأبعادها تتدانى، وبمجاهلها تغدو معالم. وإذا بالأمم يطلّ بعضها على بعض، ويسفر بعضها لبعض، ويسمع بعضها صوت بعض. فلا سقوف، ولا حُجُب، ولا سدود. وإذا بالأرض مِصْوَل واحد تتصوّل فيه جميع شعوب الأرض.

تلك معجزة جاءتنا بها الحربان الأخيرتان وما رافقهما من الثورات والزعازع. فكان منها أن تفسّخت أسس الأمم، وماد بنيان كلّ منها وتصدّع. فلا انعزال فيما بعد ولا انكماش ولا استقلال، بل هنالك تسرُّب وتداخل وتمازج. وهنالك احتكاك وحذر وارتباك. فما من عقيدة ثابتة، وما من تقليد راسخ، وما من رادع إلّا يناهضه ألف رادع، أو من وازع إلّا يعاكسه ألف وازع. فكأنّ الأمم، وقد

كانت من قبل كالطير تبني كلّ واحدة وكرهًا لذاتها، أصبحت وإذا في وكرها بيض غير بيضها وفراخ غير فراخها. فكان من الطبيعي أن تضطرب وأن تهدّد أو أن تستغيث.

أو كأن الأمم قطعان من البقر، ولكلّ قطيع رعاته ومراعيه، وموارده وزرائبه. وأفراد القطيع قد ألفوا رعاته وبعضهم بعضًا، مثلما ألفوا عداواتهم وصداقاتهم. ثمّ جاء مَن خلط كلّ هذه القطعان من غير سابق إنذار، فاختلطت عليها رعاتها ومراعيها ومواردها وزرائبها، مثلما اختلطت عليها عداواتها وصداقاتها. فعَلا الخوار، واحتدم النطاح، واشتبكت القرون والقوائم، فكان غليان وكان فوران.

ذلك في نظري هو السبب الأظهر والأقرب لما تشهدون في العالم من حمّى وهذيان، وغليان وفوران. أمّا السبب الخفيّ والبعيد، وأمّا السبب الأهمّ، فهو أنّ الناس الذين أقاموا لكلّ شيء قيمة ووزنًا ما أقاموا بعد للإنسان قيمة ووزنًا يليقان بمجده وعظمته وجبروته.

كلّ ما في الطبيعة ثمين وجميل وشريف. ولكنّ أثمنه وأجمله وأشرفه على الإطلاق هو الإنسان. فهو الكائن الذي لا حدود لكيانه. هو الفكر الذي لا ينثني يفتّش عن ذاته؛ والخيال الذي لا يملّ ارتياد المستتر والمجهول؛ والمغنطيس الذي يتناول الإلهام من كلّ ما يتّصل به من الكائنات؛ والخزّان الذي لا ينضب من الشوق إلى الكمال المطلق. هو غاية الطبيعة من وجودها. أمّا غايته من وجوده فمعرفته لنفسه. ومعرفته لنفسه تعني معرفته لله. ومعرفته لله تعني معرفته لكلّ شيء. ومعرفته لكلّ شيء تعني القدرة على كلّ شيء والانعتاق من كلّ قيد وحدّ. ومَن كان ذلك شأنه ومقامه في الكون فبماذا تزنه وكيف تحدّد قيمته؟ إنّه في اعتقادي فوق كلّ الموازين والأثمان.

بيد أنّ الناس يعتقدون غير ما أعتقد. وإلّا لما جعلوا لكلّ إنسان قيمة ووزنًا، ولما اختلفت موازينهم باختلاف الناس وما يحترفون وما يمتهنون، أو يملكون وينفقون، أو يعرفون ويجهلون؛ ولما اختلفت باختلاف الأحساب والأنساب، والرتب والمقامات، والحسن والبشاعة، والجاه والوضاعة. فكان الواحد بمقام الألف أحيانًا، وأحيانًا كان المليون بمقام الصفر عن يسار الواحد. ثمّ صار الإنسان سلعة بخسة تضحّى في سبيل سلعة أثمن.

لقد تواضع الناس على أثمان للأشياء التي يحتاجون إليها في حياتهم. وهذه الأثمان ترتفع وتنخفض بالنسبة لكثرة الشيء وقلّته والحاجة إليه. ويندر أن تقع على شيء لا قيمة له البتّة في نظر الناس. أمّا العامل الذي لا يحتاج إلى عمله معمل من المعامل التي تنتج الأشياء فقيمته لا شيء!

لست أنكر أنّ للمعادن والحجارة الكريمة قيمة. ولكنّي أنكر على الناس أن يجعلوا قيمة كلّ ما في الأرض من ذهب وفضّة وياقوت وألماس فوق قيمة إنسان واحد وإن يكن ذلك الإنسان شيخًا على حافّة القبر، أو معتوهًا في بيت المجانين، أو مُقعدًا لا يفارق الفراش.

ولا أنكر أنّ للنفط قيمة كبيرة في تسيير عجلات المدنيّة المتعدّدة العجلات. ولكنّني أنكر على النفط قيمة جديرة بأن تُهدَر في سبيلها الدماء البشريّة الزكيّة، فتزهق الأرواح، وتتفتّت الأكباد، وتمزّق الأجساد، وتغدو المدن والقرى العامرة خرابًا، والحقول والبساتين الغنّ يبابًا.

ولا أنا أنكر على الناس قِيمًا معنويّة تواضعوا عليها كالكرامة الشخصيّة، والمعتقدات الدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة على اختلاف أنواعها وألوانها. ثمّ لا أستغرب أن يموت إنسان في سبيل كرامته ومعتقداته مثلما مات سقراط بالسمّ، وبرونو بالنار، والحلّاج بحدّ السيف؛ ومثلما استشهد الكثير من رواد الحريّة الفكريّة في سبيل عقيدة أو رسالة. ولكنّني أنكر على أيِّ النّاس أن يميت أيَّ إنسان في سبيل كرامته ومعتقداته.

إنّني أنكر على الناس أن يجعلوا العمل أثمن من العامل، والحاجة أغلى من المحتاج إليها، والعقيدة أفضل من معتقدها. وأنكر على المدنيّة أن تسوق الملايين من أبنائها إلى حتوفهم على رغم أنوفهم وذلك تحت ستار الدفاع عن حياضها المسمومة وبنيانها المتصدّع. ومتى أصبح المورد أثمن من صاحبه أو وارده، والبنيان أهمّ من بانيه أو ساكنه، فألف سلام على المورد ووارديه وعلى البنيان وساكنيه.

سرٌّ كنين وكنز دفينٌ هو الإنسان، وإناء قدسيّ لحقيقة أزليّة – أبديّة هي الله. ولا فرق ما بين رضيع ويافع، وبين شابّ وأشيب، أو بين ذكر وأنثى. ونحن لا نملك من معرفة الغيب ما يخوّلنا أن نحدّد قيمة أيّ إنسان ثمّ أن نجعل تفاوتًا فاضحًا بين قيمة إنسان وإنسان.

ليت شِعري هل درت بنت فرعون يوم التقطت الطفل موسى أن لقيطها سيقهر والدها يومًا من الأيّام، وسيقهر الزمان من أعالي طور سينا؟ ولو هي شاءت أن تبيع ذلك اللقيط ترى بكم فلس كانت تبيعه؟

ذلك مثال واحد من أمثلة بغير عدّ يحفل بها تاريخ البشريّة، وكلُّها يشهد على أنّ قيمة الإنسان فوق ما يستطيع الناس تحديده. فما أكثر الأنبياء والعباقرة والعظماء الذين ما لمعوا في حداثتهم ولا كان آباؤهم وأمّهاتهم على شيء من النبوّة والعبقريّة والعظمة. ولو كُلّف معاصروهم أن يقيموا لهم أثمانًا لما ميّزوهم بشيء من سائر الأحداث ومن سائر الآباء والأمّهات. بل كان من الأرجح أن يجعلوهم في أسفل السلّم البشريّ من حيث القيمة والأهميّة.

إنّ مدرسة تحشو دماغ التلميذ بشتى المعلومات من صالحة وطالحة ولا تعلّمه قيمته كإنسان لَمدرسةٌ لا فرق بينها وبين السجن. وإنّ طالبًا يتخرّج في أعلى المدارس وبأضخم الشهادات ولا يعرف قيمة نفسه وقيمة الناس لطالبٌ دفن أجمل شطر من حياته في التراب. فالشهادات تبلى، والمعارف تتغربل، والأحوال تحول، أمّا الإنسان فأقوى من كلّ حال. والمدرسة المثلى هي التي تهتمّ بالتلميذ إنسانًا عزيزًا قبل أن تهتمّ به مهندسًا أو طبيبًا أو محاميًا بارعًا.

وإنّ معبدًا يخرّج منه العابد ذليل النفس، صغير القلب، كسير الجفن لمعبد لا يعرف الله. فالله ما خلق الإنسان ليذلّه ويمتهنه ويشقيه، بل ليرفعه إليه ويكرّمه ويسعده. ولا يراه من الطين ليبقيه طينًا. بل نفخ فيه من روحه ليجعله روحًا كروحه. فالمعبد الأمثل هو الذي إذا ما دخله العابد ذليلًا وصغيرًا وكسيرًا خرج منه أبيًّا وكبيرًا ومجنَّحًا.

وإنّ معملًا يقيس العامل بما يدرّه على صاحب العمل من الربح لا غير لمعمل ربحه خسارة. فالعامل إنسان قبل أن يكون عاملًا. وأن يربح الإنسان إنسانًا لأثمن من كلّ ما في الأرض من جواهر وأموال. فالمعمل الأمثل هو الذي يعمل فيه الناس للناس، كلّ على قدر معرفته وطاقته، شاعرين بكرامة العمل وعزّة النفس وغير مدفوعين إلى العمل بمذلّة الحاجة الخنّاقة.

لعلّ أفظع ما يتحمّله الإنسان من الإنسان هو الذلّ. فالذلّ أبشع وجهًا من الكبرياء، وأمرّ مذاقًا من الفقر، وأثقل وطأة من المرض، وأقسى نابًا من الموت.

ولعلّ أفظع الناس في عقيدتي هم الذين يعتزّون بمذلّة الغير. فلا يسرّهم شيء مثلما يسرّهم أن يعفّر الناس لديهم جباههم، وأن يزحفوا إليهم على الأكفّ والركب، وأن يحرقوا لهم البخّور صباح مساء.

ولعلّ أنبل الناس في عقيدتي هم الذين لا يُذلّون إنسانًا ولا يَذلّون لإنسان. لأنّهم يعلمون أنّ رفعةً تنهض على أكتاف الذلّ لمذلّة أحطّ من الذل، وأنّ صورة الله فيهم هي صورة الله في كلّ إنسان.

لقد تفشّى الذلّ في الأرض فما استقلّ به قطر دون قطر، ولا شرق دون غرب. ومع الذلّ تفشّى المين والرياء والغشّ والحذر والبغض والصلف والادّعاء والغطرسة. فالصدق يكاد يكون عنقاء مغرب. ومثله الأمانة والثقة والمحبّة والرفق واللطف والعدل والدعة. والذلّ، وتوأمه الكبرياء لا يكونان إلّا في عالم تُمتَهَن فيه قيمة الإنسان. وعالم يمتهن قيمة الإنسان لعالم مقضيٌّ عليه بالغليان والفوران، ومن ثمّ بالانفجار.

ذاك هو العالم الذي نحن منه وفيه. فهو عالم تسيطر عليه ذهنيّة الحرب. وذهنيّة الحرب ذهنيّة بربريّة تسترخص الإنسان في سبيل الكسب والسلطان. ويا ليت كسبها كان يومًا من الأيّام غير الدمار. ويا ليت سلطانها كان أكثر من عبوديّة للنار والدينار.

ذاك هو العالم الذي ورثناه عن سالف الأجيال، فهل نرضى بأن نورّثه على علّاته لمقبل الأجيال؟

إنّي لأؤمّل من الجيل الطالع والأجيال التي تليه أن يجيبوا بحزم قاطع وإيمان ثابت: «كلّا!» وأن ينصرفوا قبل كلّ شيء وبعد كلّ شيء إلى تعزيز الإنسان في أنفسهم. فمن عرف قيمته كإنسان عرف قيمة الناس أجمعين. فما خفض الجناح لمغرور بمال أو سلطان، ولا صعّر الخدّ

على منبوذ أو مهان. وإذ ذاك فلعلّ الأجيال الآتية تعرف عالمًا يسوده اللّطف والصدق والتعاون. وتتذوّق في اليقظة ما لا نتذوّقه نحن إلّا في المنام من حلاوة العدل والإخاء وحسن النظام.

لِماذا اعتزلتُ الناس

ليس من عادتي، ولا من طبعي، الكتابة في مواضيع تُقترح عليّ اقتراحًا. ولكنّ رئاسة تحرير «الهلال» باقتراحها عليّ هذا الموضوع أتاحت لي الفرصة لنفي وهم وإثبات حقيقة. أمّا الوهم فهو أنّني أحيا حياة ناسك في صومعة منقطعة كلّ الانقطاع عن الناس. وأمّا الحقيقة فهي أنّي ناسك لا في صومعة بل مع الناس وبين الناس.

وكيف تسرّب الوهم إلى أذهان الكثير من قرائي بأنّي ناسك في صومعة؟

لذلك حكاية لا بأس من سردها بمثابة تمهيد وإن يكن فيها من الأمور الشخصيّة ما قد لا يهمّ الناس بكثير أو قليل.

في سفح جبل صنّين الأشهر وعلى علوّ 1600 متر فوق سطح البحر مزرعة صغيرة تكثر فيها الصخور والأشجار من برّيّة وغير برّيّة. هذه المزرعة تدعى «الشخروب». والاسم محرّف عن كلمة عربيّة صميمة هي «الشُّرْخُوب»، ومعناها عظم الفقار. ولعلّ تلك البقعة الصخريّة دعيت كذلك لأنّ في القسم الشماليّ منها سلسلة من الصخور الشاهقة تمتدّ مئات الأمتار شرقًا بغرب وتشبه في تكوينها العمود الفقريّ. أمّا مَن دعاها كذلك، ومتى، فأمر أجهله تمام الجهل. والذي أعرفه أنّ تلك المزرعة تحدّرت إلينا بالإرث من أجيال سبقتنا من النعيميّين.

في الشخروب تعيش العائلة فصل الصيف وبعضًا من الربيع والخريف. وعندما يشتدّ البرد تعود إلى بيتها في بسكنتا. وبسكنتا قرية تبعد عن الشخروب نحو خمسة كيلومترات، وتنخفض عنه نحو 300 متر. وبين صخور الشخروب وأشجاره وفي سكون كهوفه وظلال واديه، بذرت ألذّ أحلام صباي وبعضًا من أشواق شبابي. ثمّ غبت عنه وأنا في مطلع العقد الثالث من عمري لأعود إليه وأنا في مستهلّ العقد الخامس.

ومن أين عدت إلى الشخروب؟ من نيويورك – من بابل القرن العشرين – من حمّى التنّين الرابض على شاطئ البحر والفاغر فاه ليبتلع البحر والبرّ.

عدت وفي أذنيّ ضجيج مدنيّات لا تُحصى، وفي رأسي براكين من الأفكار، وفي قلبي حنين إلى عزلة أستطيع أن أغرق في صمتها وسكونها وجمالها. فأطهّر أُذنيّ من الضجيج، وأفرّج عن رأسي ممّا فيه من البراكين، وأبرّد بعض ما في قلبي من الشوق والحنين. وكان الشخروب كريمًا معي إلى أقصى حدّ. فما ضنّ عليّ بالعزلة التي كنت أنشد، بل فتح لي قلبه وذراعيه. فرحت أمضي معظم نهاراتي في كهف من كهوفه. فساعات للتأمّل، وغربلة الماضي، وتعرية النفس، وفتح كوى الروح لنور الله. وساعات للتأليف. وهل التأليف غير مكالمة الناس؟

ولكن الناس – بارك الله في شوقهم إلى كلّ غريب وجديد – أبوا إلّا مكالمتي وجهًا لوجه. فما أقعدهم البعد، ولا صدّتهم وعورة المسالك. بل أقبلوا من كلّ صوب. وما لبثوا أن اكتشفوا «صومعتي». فمنهم من حسدني عليها. ومنهم من أشفق عليّ منها. ومنهم من راح يحدّث عنها بلسانه. ومنهم من كتب عنها المقالات الطوال.

وكان في جملة الذين كتبوا عن «الصومعة» شابّ يدعى توفيق يوسف عوّاد. وهو اليوم كاتب قصصيّ له مكانته في لبنان والعالم العربيّ. فقد نشر سلسلة مقالات عن زيارته لي في الشخروب، عام 1932 – وهو العام الذي عدت فيه من مدينة نيويورك – في جريدة «البرق» التي كانت تصدر آنذاك في بيروت لصاحبها الشاعر بشارة الخوري. وفي تلك المقالات دعاني الكاتب «ناسك الشخروب». وهكذا لبسني لقب الناسك. وما أنا بالناسك. لا هجرت الناس ولا هجرني الناس. بل إنّ بيتي – مثل قلبي – مفتوح لهم صيف شتاء، وليل نهار. وما أكثر ما يأتيني بعضهم خَجِلًا وَجِلًا من أن أمتنع عليه أو من أن يعكّر عليّ صفاء عزلتي ويقطع خيط تأمّلاتي. وجوابي لهؤلاء واحد أبدًا، وهو أنّني أحيا للناس إذ أحيا لنفسي. وأن أتحدّث إلى إنسان عينًا لعين ووجهًا لوجه، لخير من أن أتحدّث إليه بالحبر والقرطاس. وأن أكسبَ معرفة إنسان لأفضل من أن أكسب إعجابه. فالوقت عندي ليس من ذهب. وأن أفرّج كربة مكروب، أو أن أفتح كوة للنور والإيمان والأمل في نفس تكتنفها ظلمات الشكّ والقنوط، لأثمن عندي من كلّ ما في أديم الأرض من ذهب وحجارة كريمة.

إلّا أنّني في علاقاتي مع الناس حريص كلّ الحرص على عزلتي. فالعزلة حاجة في نفسي مثلما الخبز والماء والهواء حاجة في جسدي. فلا بدّ لي من ساعات أعتزل فيها الناس، لأهضم الساعات التي صرفتها في مخالطة الناس. أمّا أن أغرق مع الناس إلى ما فوق أُذنيّ في رغوة مشاكلهم الزمنيّة، وأمّا أن أشغل لساني بالهذر والثرثرة كما يشغلون ألسنتهم في مجتمعاتهم، وأن أتصنّع الفرح في أفراحهم وأتكلّف الحزن في أتراحهم، وأن أتحزّب لما يتحزّبون أو أتحمّس لما يتحمّسون من مذاهب سياسيّة واجتماعيّة وسواها، وأن أسكر بأمجادهم وأتورّم بأورامهم، فأمر لا أطيقه ولا أستطيعه. ذاك لأنّ لي هدفًا من الحياة غير أهدافهم. وهو هدف يتعذّر الوصول إليه عن طريق

السياسة والاقتصاد والنُّظم الاجتماعيّة على اختلافها. بل إنّ كلّ هذه تبدو لعيني ضبابًا يحجب الهدف ودخانًا يعمي البصيرة التي هي الدليل الأوحد إلى الهدف.

وإنّه لبعض من هدفي أن أجعله هدف أكبر عدد ممكن من الناس. ولولا ذلك لما أمسكت قلمًا ولا سوّدت وجه ورقة. ولا كانت العزلة حاجة في نفسي. فأنا، كما قلت في كتابي «كرم على درب»: ما ابتعدت عن الناس إلّا لأقرّبهم منّي.

إنّ في الناس أشواكًا لا نحسّ وخزها وأذاها إلّا لدى اصطدام المصالح واحتكاك النعرات الذاتية. وهذه النعرات وتلك المصالح أكثر ما تكون تافهة ولا قيمة لها في إسعاد الإنسان أو إشقائه. ولكنّ التقاليد البالية وجهل الناس قيمة الإنسان قد جعلت لها قيمة فوق قيمة الإنسان فراح الناس يدافعون عنها بما فيهم من أشواك. وأشواكهم تتدرّج من كلمة جارحة إلى سيف قاطع. فمن الخير لمن كان يؤمن مثلي بأخوّة الناس وهدفهم الإلهي أن يتجنب أشواكهم كيلا يكفر بأخوّتهم، وأن يعتزلهم ولو بعض الوقت كيما يستطيع أن يحبّهم وأن يغفر لهم أذاهم وأشواكهم. فأنا في عزلتي أشعر شعورًا عميقًا وصادقًا بأنّ كلّ الناس والكائنات بعض منّي وأنّني بعض منهم. وهذا الشعور يولّد فيّ مناعة روحيّة ضدّ أشواك الناس، وتساهلًا نحو ضعفهم وزلّاتهم.

أمّا أن يهرب الإنسان من النّاس خوفًا من أذاهم وأشواكهم، أو أن يعتزلهم عن كره أو عن كبرياء فجهل مطبق. إذ أنّ كلّ إنسان يحمل في كيانه كلّ الناس. وعزلة الكاره والمتكبّر عزلة سياجها الكره وحارسها الكبرياء. فهي إلى السجن أقرب منها إلى العزلة التي تتحطّم على عتبتها أبواب كلّ السجون، وأقرب إلى جهنّم منها إلى الجنّة.

وما دمت أحدّثك عن عزلتي لا عن عزلة سواي، فخليق بي أن أشهد بما للطبيعة العجماء في عزلتي من أثر بعيد وأياد سخيّة. فأنا منذ حداثتي قد ألفت هذه الطبيعة الجبليّة وشغفت بصخرها وترابها، وأشجارها وأعشابها، وطيرها وهوامّها، ومائها وهوائها، وسمائها وكواكبها، وأنوارها وظلالها، وألوانها المتبدّلة في كلّ طرفة عين تبدّلًا يسحر اللّب والعين، وبالبحر الحالم أبدًا عند أقدامها. ألفتها وشغفت بها في كلّ فصل من فصول السنة، وفي كلّ ساعة من الليل والنهار. فآنًا أحسبها فوّارات من النور، وآونة ألسنة تخاطبني بلغة أو لغات ما حَوَتْها قطّ بطون المعجمات. وحينًا يغمرني الشعور بأمومتها. فأراني كالرضيع على صدرها. ولكنّها تُرضعني من ألف ثدي وثدي، وتلمس أجفاني بألف كفّ وكفّ، وتعزف لي على آلاف آلاف الأوتار. وهي في كلّ ذلك رفيقة إلى أقصى درجات الرفق، وجوادة حتّى آخر حدود الجود.

ولك، من غير أن تسألني، أن تتخيّل ولو بعض ما توحيه تلك الطبيعة إلى قلبي، وما تهمسه في أُذني، وما تملأ به يديّ، وما تبعثه في دمي من شوق ومحبّة وحنين. ثمّ لك أن تتخيّل مشاكل النّاس ما بين تجارة وصناعة، وتهافت على الملاهي، وتزاحم على الملذّات، وتكالب على الفلس، وتناطح

على الألقاب والرتب، وتفانٍ في سبيل الجاه والسلطان. نعم، لك أن تتخيّل كلّ مشاكل الناس – وهي تكاد لا تحصى – ثمّ أن ترزمها في رزمة واحدة وتلقي بها في حضن تلك الطبيعة وفي خضمّ تلك اللانهاية. أفلا تراها تنتشر هناك انتشار الهباء وتتلاشى تلاشي الدخان؟

لست أريد أن أُدخل في روعك أنّ الطبيعة وحدها – مهما بلغت من الروعة – كافية لأن تجعل العزلة في أحضانها عزلة مثمرة. فالطبيعة معبد مفتاحه الشوق إلى الحياة لا الخوف من الموت. والطبيعة كتاب لا تقرأه العيون المقرَّحة بأشواك العالم وشهواته. وتقرأه القلوب المتعطّشة إلى الحقّ، التّوّاقة إلى الانعتاق من السّدود والحدود. وليس يدخل قلب الطبيعة الفسيح إلّا الذين يدخلون قلب الإنسان الواصل الأزلية بالأبديّة. وليس يدخل قلب الإنسان إلّا الذين آمنوا بأنّ قلب الإنسان هو الباب المؤدي إلى قلب الله. ومَن آمن ذلك الإيمان كان لا بدّ له من أن يعتزل البهيمة في الإنسان ليدرك الله في الإنسان.

وإذ ذاك فلك أن تجيب عني: لماذا اعتزلت الناس؟

حِكاية الشرق وَالغرب

التلاقح بين الأجناس سنّة من السنن الأوّليّة في الحياة. وهو في عالم النبات مثله في عالم الحيوان. فالأزهار من فصيلة واحدة تتلاقح عبر الفضاء. وقد سخَّرت لها الطبيعة الهواء وشتى الحشرات تنقل اللّقاح من زهرة إلى زهرة. أمّا الحيوان والإنسان فالغريزة الجنسيّة المتأصّلة في كليهما تدفع بهما إلى التلاقح بقوة تكاد لا تعانَد. ولولاها لا نقرض الإنسان والحيوان من زمان بعيد.

ذلك في عالم الأجساد. وما عالم الأجساد إلّا المثال المحسوس للعالم الذي وراء الحسّ. فهذه الكلمات التي تقرأها الآن ليست سوى مثال محسوس لأفكار كاتبها المحجوبة عن الحسّ. أفلا يحقّ لنا القول بأنّ سنّة التلاقح الجارية في عالم الأجساد هي عين السنّة الجارية في عالم الأرواح؟ وإن تكُ يا قارئي ممّن ينكرون الروح فقل «عالم الأفكار» بدلًا من «عالم الأرواح». وما إخالك تنكر الفكر.

أجل. تتلاقح الأفكار نظير ما تتلاقح الأزهار. ومثلها الأحاسيس ما بان منها وما استتر. أمّا كيف تتمّ تلك العمليّة بالتمام، وإلى أيّ حدّ يتلقّح هذا الفكر بذاك، وذلك الشعور بهذا؟ فقضيّة يستحيل الجواب عنها بالأرقام والمنطق. والأمر الذي لا ريبة فيه هو أنّه ما تكالم اثنان أو تراسلا، ولا تصادق اثنان أو تعاديا، إلّا كان بين فكريهما وقلبيهما تلاقح ما. ولو كان لنا مختبر كيميائيّ نحلّل فيه الأفكار والأحاسيس على حدّ ما نحلّل العناصر، لتمكنّا من ردّ أفكار كلّ إنسان وأحاسيسه إلى مصادرها.

ما تزال سنّة التلاقح، إن في عالم الأجساد أو في عالم الأرواح، أبعد من أن نفهمها ونتسلّط عليها حسبما نشاء. فهي تعمل عملها فينا، شئنا أم أبينا. ونحن نطيعها آنًا مختارين وآنًا مكرهين، وحينًا عن وعي وآخر عن غير وعي. وإن جاز لنا أن نستنتج من أعمالها شيئًا عن غاياتها قلنا إنّ أهمّ غاياتها أن تجعل من الناس أمّة واحدة، بل أسرة واحدة، وأن تمشي بهم إلى هدف واحد. وإنّ أكره ما تكرهه أن ترى شعبًا من الشعوب ينطوي على ذاته، فلا يمازج غيره من شعوب الأرض.

أو بقعة من بقاع الأرض تتحصّن دون باقي الأرض. كأن يكون هناك شرق وغرب. فلا الشرق يستغرب. ولا الغرب يستشرق. لذلك كان همّها الأكبر دكّ السدود ومحو الحدود بين الناس. وهي تسلك إلى ذلك شتّى السبل. منها الفتوحات، ومنها المجاعات، ومنها محبّة الكسب والمغامرة، ومنها الاكتشافات والاختراعات، ومنها الرسالات الدينيّة.

والآن لو نظرنا إلى الشرق والغرب من هذه النافذة، لوجدناهما في تفاعل وتلاقح دائمين على مدى التاريخ البشريّ، يهجع الواحد فيأتيه الآخر بلقاح لا يلبث معه أن يستفيق من هجعته. فيطوي صفحة من حياته ويبدأ أخرى.

من هذا القبيل كانت هجرة إبراهيم الخليل من أور الكلدانيّين إلى فلسطين. ثمّ هجرة ذريّته من فلسطين إلى مصر. ومن هذا القبيل كان تدفّق الشعوب المغوليّة من قلب آسيا حتّى قلب أوروبّة. وكذلك تدفّق القبائل العربيّة من الجزيرة حتّى الصين شرقًا، وإسبانيا غربًا، وحدود القفقاس شمالًا. كذلك قولوا في حروب الفرس والروم، والحروب الصليبيّة، وفي اكتشاف العالم الجديد وأمواج الشعوب التي زحفت إلى شواطئه؛ وحملة نابليون إلى الشرق، والحروب الاستعماريّة التي شنّها الغرب على الشرق، وفي الحرب الأخيرة التي مزجت الشرق بالغرب والغرب بالشرق مزجًا لا مثيل له في التاريخ قبل اليوم. ولكنّه ما كان أكثر من تمهيد لمزج أوسع منه نطاقًا وأبعد مدى بكثير.

أمّا الرسالات الدينيّة التي انطلقت من الشرق فكانت أعظم لقاح حمله الشرق إلى الغرب.

لولا الصين ونتاج الفكر الصينيّ؛ ولولا الهند ولقاح الخيال الهنديّ؛ ولولا فارس وجمال الفنّ الفارسيّ؛ ولولا العرب وتوقّد الذهن العربيّ؛ ولولا مصر وحضارة فراعنة مصر، لما كان الغرب ولا حضارة الغرب. وحسبنا أن نذكر أنّ كولمبس ما اكتشف أميركا إلّا طمعًا في الوصول إلى الهند وكنوز الهند.

كم من زهرة لا تعقد لأنّ الأقدار لم تقيّض لها نحلة تحمل إليها اللقاح من زهرة مثلها. وكم من شجرة بريّة لا تأتيك بغير الثمر البرّي الحامض. فإذا غرست في قلبها «مطعومًا» من شجرة حلوة من ذات الفصيلة جاءتك بالثمر الحلو الشهيّ. وكم من تربة – ما دمت تبذر فيها عين البذار عامًا بعد عام – أصابها ما يشبه العقم. فإذا أتيتها ببذار جديد عادت مولّدة وعادت سخيّة. وللمزارعين عندنا مثل مأثور: «غيّر بذارك ولو من عند جارك».

لقد كان الغرب «بريًّا» «أيّام كان الشرق في أوج نضجه وإنتاجه الماديّ والمعنويّ. وكانت تربة الغرب قاحلة شحيحة أيّام كانت تربة الشرق فيّاضة بالخيرات. فكانت الرسالات الدينيّة. وكانت الفتوحات. وإذا بالغرب «يتطعّم» فيثمر أثمارًا تؤكل، وأثمارًا لا تؤكل. ولكنّه يثمر.

ثم دار الزمان. فإذا بالشرق ينكمش على نفسه فيصاب بشيء من العقم لعلّه ما كان غير نتيجة محتومة لإسرافه في بذل حيويّته. وإذا بالغرب يغزو الشرق بماله ورجاله فيستعمره ويستغلّه. ولكنّه، من حيث لا يدري ولا يقصد، يحمل إليه لقاحًا جديدًا وبذارًا جديدًا. وإنّي لأكاد أغفر للاستعمار كلّ مساوئه – وما أكثرها وأفظعها! – لقاء تلك الحسنة الوحيدة. فالشرق، من طوكيو حتّى الدار البيضاء، يتململ اليوم تململ أهل الكهف وقد دبّت اليقظة في أجفانهم وأبدانهم. وما هذه «النهضات» الحديثة التي نعتزّ بها: من أدبيّة وفنيّة وسياسيّة واقتصاديّة وعلميّة وغيرها سوى تثاؤب الجبّار يستفيق من نومه ويتمطّى ويفرك عينيه لاستقبال نهار جديد. أمّا النهضة الكبرى التي سينهضها الشرق فما تزال خلف آفاق جيل نحن منه وفيه.

تلك هي حكاية الشرق والغرب في خطوطها الشاملة. إنّها حكاية تلاقح مستمرّ. وإن شئت فقل حكاية توازن لا يستقرّ. فالاستعمار الذي شاءه ذووه وسيلة للاستغلال لا أكثر، تحوّل بتدبير غير تدبير الإنسان إلى وسيلة للتلاقح والتوازن بين شقّي الإنسانيّة العظيمين. أعني الشرق والغرب. فهذان الشقّان كانا وما برحا بمثابة كفّتين في ميزان واحد.

تمرّ بنا أدوار تهبط فيها كفّة الشرق وتشيل كفّة الغرب. فلا تلبث أن تعقبها أدوار تُعكس فيها حركة الكفّتين. ونحن اليوم على عتبة الدور الذي سنرجّح فيه كفّة الشرق. وإذ ذاك يتحتّم على الشرق أن يحمل اللقاح إلى الغرب. وإنّي لأرجو أن يكون لقاحًا طاهرًا من الضغينة والجشع وحب الأخذ بالثأر، حاملًا رسالة الإنسان التواق إلى الانعتاق لا من ربقة أخيه الإنسان وكفى، بل من ربقة الطبيعة كذلك. أمّا متى تتلاقى كفّة الشرق وكفّة الغرب في توازن أبديّ ليتذوّق الاثنان حلاوة الغبطة الناجمة عن التوازن الكامل، فعلمُ ذلك عند مَن في يده الميزان، ومَن وجوده يملأ الزمان والمكان.

إلى أين؟

تعدو بنا المدنيّة عدو الجواد الجموح عضّ لجامه. ونحن لا نملك من أمرها وأمرنا أكثر من أن نحاول الثبات على صهوتها بكلّ ما وهبتنا الحياة من قوّة بدنيّة وحيلة عقليّة. أمّا أن نلوي رأسها حسبما نشاء، وأن ندفعها في الطريق الذي نشاء، ثمّ أن نكفل أنّها لن تكبو بنا كبوةً لا تقوم من بعدها ولا نقوم، فذلك فوق ما نستطيع. ومَنْ قال إنّ المدنيّة مطيّة مطواع للإنسان كان أمّا خادعًا أو مخدوعًا. إذ كيف للمدنيّة أن تُسلس لنا القياد، وأن تسير بنا إلى هدف بعينه، ونحن ما ننفكّ نلهب جنبيها بالسياط والمهاميز، وما نفتأ نقيم لها في كلّ ساعة، بل في كلّ لحظة، أهدافًا قلّما تجمع بينها قرابة جوار أو قرابة مبدأ؟ بل كيف لها ألّا تركب رأسها فتمضي تنهب الأمصار والأعمار على غير هدى، والذين يدّعون قيادتها ليسوا واحدًا ولا ألفًا، بل هم الناس بأجمعهم من آدم حتّى اليوم؟ وهل عرفتم زمانًا اتّفق فيه الناس كلّهم على هدف واحد يوجّهون إليه حياتهم؟

لو كانت المدنيّة صنيعة إنسان واحد، أو شعب واحد لكان من حقّ ذلك الإنسان أو الشعب وفي استطاعته أن يوجّهها حسب هواه. ولكنّها خلاصة ما أنتجه العقل والقلب البشريّان على مرّ العصور، وفي كلّ مكان، من علوم وفنون واختراعات واكتشافات ونُظم اجتماعيّة وسياسيّة واقتصاديّة ودينيّة. فما من آدميّ عاش على سطح هذه الأرض، أطفلًا كان أم شابًّا أم كهلًا أم عجوزًا، أعبقريًّا كان أم غبيًّا، إلّا كان له في بنيان صرح المدنيّة بعض الجهد وبعض الفضل. وما من أمّة إلّا يتّصل تاريخها بكثير أو قليل، وعن بعيد أو قريب، بتاريخ باقي الأمم. فلها من المدنيّة نصيب جليل أو ضئيل.

وإنّه لَمِنَ الخطل والإجحاف والجور أن نفاضل ما بين الأمم من هذا القبيل فنجعل للواحدة نصيب الأسد من المدنيّة وللأخرى نصيب الذبابة. فالأمر الذي لا نشكّ فيه هو أنّنا لا نملك الأدلّة ولا المقاييس التي تمكّننا من الجزم بأنّ هذه الأمّة قدّمت إلى المدنيّة أكثر من تلك، أو نفحت العالم بأعمال هي أعظم شأنًا من أعمال سواها. فما دام عمل البشريّة عملًا متواصلًا، وما دام الناس

يعمل كلّ منهم على قدر طاقته، فكيف لنا، ونحن ما نزال في المضمار وعملنا لمّا ينتهِ بعد، أن نجعل لكلّ عمل قيمةً، ثمّ أن نفضّل بين قيمة هذا العمل وقيمة ذاك؟

إنّ تاريخ العالم ليحفلُ بالأمثلة على حوادث بدتْ تافهة في حينها فما لبثت أن أصبحت من حوادث التاريخ الجسام. وأخرى بدت جسيمة فما عتّمت أن انقلبت تافهة. ومن ثمّ فالجهود البشريّة جهود يقوم بعضها على بعض، وينبثُ بعضها من بعض. ونحن لو جئنا نردّ أيّ عمل كبير إلى أصوله لوجدنا جذوره منتشرة في أعمال صغيرة لا تحصى ولا تُعدّ. فكيف لنا، والحالة هذه، أن نفرّق بين الناس، ثمّ بين الأمم، من حيث حصّتهم في نتاج عقل الإنسانيّة وقلبها؟ إنّه لعمل لا طائل منه. وهو، إلى ذلك، ينطوي على الكثير من الظلم والشطط والاستبداد. والحقّ الذي لا مناص منه هو أنّ المدنيّة إرث مشترك فيه للضعيف مثل نصيب القويّ، وللجاهل مثل نصيب العالم. وليس لإنسان أن يفاخر إنسانًا بما قدّم أو أخّر، ولا لشعب أن ينافس شعبًا آخر بما اكتشف واخترع.

إذن فالمدنيّة هي صنيعة الناس أجمعين ومطيّة الناس أجمعين. ومن هنا كانت بليّة الناس بها وكانت بليّتها بالناس. وهي بليّة عبّر عنها المثل الدارج خير تعبير بقوله: «كثرة الطبّاخين شوشطت الطعام». فالناس، أفرادًا وجماعات، يحسبون من حقّهم أن يجرّوا المدنيّة في الطريق الذي يرغبون، وإلى الهدف الذي يقيمون. وحتّى اليوم قلّما اتّفق رجلان أو جماعتان على طريق واحد وهدف واحد. فما من مذهب دينيّ أو فلسفيّ، سياسيّ أو اقتصاديّ، فنّي أو اجتماعيّ، قام في الناس يومًا من الأيّام إلّا حاول أن يذلّل المدنيّة لإرادته دون كلّ إرادة، وأن يجري بها إلى هدفه دون كلّ هدف، وأن يصبغها بصبغته دون كلّ صبغة. ولو كان لكم أن تحصوا كلّ تلك المذاهب منذ بدء التاريخ حتّى اليوم لقلتم إنّه من العجب العجاب أن تقطع بنا المدنيّة شوطًا بعيدًا كالّذي قطعته منْ غير أن تحطّمنا وتتحطّم.

ما عَبد إنسانٌ صنمًا من الأصنام إلّا حاول – أو تمنّى في الأقلّ – أن يحمل الناس كلّهم على عبادة الصّنم الذي يعبد. ولا بشّر بشيرٌ بإلهٍ واحد غير منظور، خلق كلّ ما في السموات وعلى الأرض، وهو يعاقب الناس على شرّهم ويثيبهم على خيرهم، إلّا سعى بكلّ قدرته على ردّ كلّ النّاس إلى الإله الذي يبشّر به. ولا أعلن عالمٌ نظريّةً من النظريّات في بعض أسرار الكون وظواهره، إلّا شاء أن يجعلها نظريّة الناس أجمعين.

كذلك قولوا في شتّى المذاهب من فنّيّة وأدبيّة وسياسيّة واقتصاديّة وسواها، وهي تكاد لا تحصى. وكلّها يدّعي حقّ قيادة المدنيّة في طريقه وإلى هدفه. ولكنّ المدنيّة ما انقادت بعد إلى مذهب واحد. ولا سلكت طريقًا واحدًا إلى هدف واحد. فكأنّها، وهي صنيعة الناس، مستقلّة إلى حدّ ما عن الناس. بل كأنّ لها وعيًا فوق وعيهم، وإرادة غير إرادتهم، وقدرة على تحويل غاياتهم عن أهدافها. فما أكثر ما خلقه الناس من الأشياء واستنبطوه من الحيل للتغلّب على ما يكرهون فإذا به

يقودهم إلى أكره ممّا يكرهون. وما أكثر الآلات التي اخترعوها لعلّهم بها يصلون إلى الراحة والهناء فإذا بها تصبح في أيديهم أدوات للتعب والشقاء.

ألا رحمة الله على الذين بهم اهتدينا إلى النار والحديد، وإلى المغزل والمنوال، وإلى الإبرة والدولاب، وإلى الكلمات نخزن فيها مشاعرنا وأفكارنا، والأحرف نرسم بها الكلمات. إنّها لأمور لا تستقيم لنا بدونها حياة. ولا تقوم بغيرها مدنيّة. ولكنّها ما كانت لنا مصدر هناء حتّى كانت مصدر شقاء. إذ لولاها لما كانت حروب الحديد والنار، وحروب المنتج والمستهلك، والعامل وصاحب العمل، ولا كانت الدعايات المضلّلة، والكتابات التي تنفث السموم بين الناس.

رحمة الله على ذلك الألمانيّ الذي يسّر للناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم وأديانهم أن يتلاقوا في كلّ زمان ومكان على صفحات الكتب المطبوعة فتتلاقح أفكارهم، وتتعارف أرواحهم، وتتقارب قلوبهم. ولو كان له أن يعود اليوم ويرى بعينه ويسمع بأذنه كلّ ما تقذفه مطابع الأرض من شتيمة ونميمة، وكرهٍ وضغينة، ومكر يلبس المسوح، ودعارة تقلّد الطهارة، وجهل يحمل صولجان المعرفة، وعبوديّة على رأسها تاج الحريّة، وإلحاد يغرّد بلسان الإيمان؛ لو كان له أن يقف على كلّ ما تبذره المطابع في قلوب النّاس وأفكارهم من شقاق ونزاع وقطيعة، لآثر أن يحطّم المطبعة التي اخترعها فكانت أمّ كلّ المطابع.

رحمة الله على ذلك الأسوجيّ الذي استنبط الديناميت فظنّه خيرًا عظيمًا للبشريّة، به تُفتّت الجبال، وبه تزيل من طريقها عقبات كأداء. فإذا به يغدو في يدها سلاحًا هائلًا للتدمير والتقتيل. لذلك راح مخترعه «يكفّر» عن «ذنبه» بتقديمه جائزة سنويّة سخيّة للإنسان الذي يأتي بأجلّ عمل لتوطيد السلم بين الناس.

ورحمة الله على ذلك الفرنسيّ الذي اكتشف الجراثيم الخبيثة العاملة أبدًا في الظلام على هدّ جسم الإنسان وبعثرة قواه. فقدّم اكتشافه هبة ربّانيّة للإنسانيّة المعذَّبة عساها تنتشل بعض مرضاها من بين أشداق الموت. ولكنّ تلك الإنسانيّة ما لبثت أن استخدمت هبته العلويّة أداةً للتهديد والتهويل، ولزرع الجراثيم الفتاكة في أجساد أبنائها السليمين والزَّجّ بهم بين أشداق الموت. فكان ما نسمعه عن الحرب بالجراثيم.

ورحمة الله على الذين أنفقوا ما قُسم لهم من العمر في المختبرات الكيميائيّة بين الأنابيق والغازات ليسهّلوا الحياة لبشريّةٍ كلّ ما في حياتها ألغاز معقّدة وأبواب مسحورة. فما عتّمت البشريّة أن قلبت نيّاتهم رأسًا على عقب، فكان ما سمعناه ونسمعه عن الحرب بالغازات السامّة.

وعفا الله عن الأموات والأحياء من أولئك المجاهدين الذين نذروا خير ما فيهم من قوى عقلية وجسديّة وروحيّة للكشف عن سرّ الحياة في المادة لعلّهم يخرجون بالناس من ظلمات كثيفة ما برحت تحيق بهم منذ استوطنوا الأرض. فما إن توفَّقوا إلى دخول قلب المادّة حتّى أُكرهوا على

إطلاق ما فيه من طاقة عجيبة على الجماهير من الناس الآمنين في مساكنهم ومزارعهم ومعاملهم، وعلى الآلاف من البهائم الوادعة في مرابطها ومراعيها. فكانت الصفحة الأشدّ سوادًا في تاريخ البشريّة وعنوانها «هيروشيما». وصفّق الكثير من النّاس. واقشعر البعض وغلت مرائر البعض. ولكنّهم ما ارتابوا قطّ في أنّ المدنيّة سائرة في سبيلها السويّ!..

وها أنا واحد من أولئك الذين اقشعرّت أبدانهم أسألكم وأسأل المدنيّة: إلى أين؟

أجل إلى أين تجري بنا المدنيّة التي خلقناها وكأنّها هي التي خلقتنا؛ والتي تتحكّم بنا ولا نتحكّم بها؛ والتي نغالي في تبجيلها وتكريمها وتعظيمها وفي المحافظة عليها إلى حدّ أنّنا نضحّي في سبيلها بجهود أجيال وأجيال وبالملايين من الأرواح نوردها الحتوف الباكرة رغم أنوفها؟

ألعلّ هذه المدنيّة أثمن من الذين خلقوها؟ ألعلّ المحراث أهمّ من الحارث، والقلم أعظم من الكاتب، والبيت أغلى من ساكنيه، والفرس أعزّ من فارسه؟ حتّى مَ نكرّمها فترذلنا، ونرفعها فتحطّنا، ونبنيها فتهدمنا، ونرتمي على قدميها فتركلنا، ونجمعها فتفرّقنا؟ وهل الذنب ذنبها في كلّ ذلك أم هو ذنبنا؟ ثمّ أصحيح أن الذين يدَّعون الدفاع عنها إنّما يدافعون في الواقع عن مصالح الإنسانيّة؟ وبكلمة أخرى – هل المدنيّة فاسدة أم أنّنا الفاسدون؟ وإن تكن المدنيّة فاسدة فمَنْ أفسدها وكيف السبيل الى إصلاحها؟ أو نكن نحن الفاسدين فمِن أين فسادنا وكيف لنا أن نجتثّ جذوره من حياتنا؟

ههنا بيت القصيد.

إنّ الذين ينعون على المدنيّة فسادها لجيشٌ لجب جرّار. منهم القائلون بأنّ المدنيّة أصبحت في العصر الأخير ميكانيكيّة إلى حدّ لا يطاق. فالماكينات الحديثة على أنواعها التي استنبطناها لتقوم بأعمال كان يقوم بها الإنسان أمّا وحده أو بمساعدة البهيمة قد جعلت من الإنسان شبه ماكينة إذ جعلته عبدًا ذليلًا للماكينة. وبذلك قضت على ما فيه من فطرة صالحة كانت تدفعه إلى التعبير عن خوالج نفسه بأشياء يخلقها من صنع يديه. فكأنّها قضت على ما فيه من ذوق وفنّ وميل إلى تحسّس الجمال باتّصاله المباشر مع الطبيعة التي هي مصدر الحياة والجمال. ومن ثمّ فالماكينة التي لا تحسّ ولا تعقل ولا تتحرّك من تلقاء ذاتها قد حوّلت الإنسان الذي يحرّكها إلى كائن يكاد لا يحسّ ويعقل من الأشياء إلّا ما تحتاج إليه الماكينة. فكأنّ النّاس في هذه الأيّام ليسوا سوى لوالب أو براغي أو دواليب في ماكينة هائلة هي المدنيّة.

ومنهم القائلون بأنّ المدنيّة أصبحت في الزّمان الأخير ماديّة إلى حدّ لا يطاق. وهم يعنون بذلك أنها لكثرة ما خلقته للإنسان من موارد للاستمتاع الحسيّ قد صرفته عن حاجاته الروحيّة. فراح الناس يتكالبون ويتطاحنون في سبيل الحصول على أقصى ما تجود به المدنيّة من ملذّات جسديّة ناسين أنّهم ليسوا من الطين لا غير، وأنّ طينهم ما كان على شيء من الحياة لولا نسمة الله فيه.

ومنهم القائلون بأنّ فساد المدنيّة إنما يعود إلى فساد نُظمها السياسيّة والاقتصاديّة، فلو أنّ الحكم كان في أيدي الجماهير التي تخلق الثروة، ثمّ لو أنّ تلك الثروة توزّعت بالإنصاف على الّذين يخلقونها لكانت لنا المدنيّة المثلى ولعاش الناس في ظلّها آمنين ولاستمتعوا بلذّة البقاء إلى أقصى حدود الاستمتاع.

أمّا الذين ينعون على الإنسانيّة فسادها فَنَدْبَتُهم تكاد تكون واحدة لا تتغيّر: لقد طغى الشرّ على الخير بين الناس. فالكفر يكاد يقضي على الإيمان، والفسقُ على الطهارة، والكذب على الصدق، والجشع على القناعة، والظلم على العدل، والباطل على الحقّ، والبغض على المحبّة، والوحشيّة على الإنسانيّة، وبالإجمال فالإنسان قد ضلّ الصراط القويم ومصيره حتمًا إلى الهاوية.

ذاك قليل من كثير ممّا يقوله الناس في المدنيّة التي هي صنيعة الناس.

أمّا أنا فأقول: لا المدنيّة فاسدة ولا نحن فاسدون. ولكنّها غير كاملة لأنّنا غير كاملين. ونحن غير كاملين لا لأنّ الله خلقنا ناقصين. فالله الكامل لا يخلق إلّا الكمال. ولكنّ كمالنا كمال البذرة ما أتيح لها بعدُ الزمان الكافي لتصبح شجرة كاملة. فنحن ما نزال بمعرفتنا أطفالًا بالنسبة إلى ما يترتّب علينا معرفته من أنفسنا ومن كونٍ نحن منه وفيه. وأمامنا الزمان بآباده والفضاء بأبعاده. فكيف نقنط من رحمة الله ومن قدرتنا على التمتّع بمعرفته؟ إن يكن من حقّنا أن نعرف الحقّ فجهلنا إيّاه لدليل على أنّنا ما نزال في طريقنا إليه؛ وأنّنا ما نبرح في طور التفتّح والنموّ. وإذ ذاك فأيّ تثريّب علينا إن نحن خلقنا مدنيّة ناقصة لأنّ معرفتنا للحقّ ليست معرفة كاملة بعد؟

أليس أنّ ما نحسّه من نقص في مدنيّتنا هو الحافز الأكيد لنا على السعي نحو الكمال؟ أمّا متى نبلغ الكمال فأمر ليس من شأني ولا من شأنكم أن نهتمّ بتحديده الآن ما دامت الأزليّة من ورائنا والأبديّة من أمامنا. وجلّ ما يليق بنا في هذه المرحلة من سيرنا أن نتعلّم كيف نَلِج كلّ باب جديد ينفتح في وجهنا فنجعل منه ولو نافذة صغيرة نطلّ منها على هدفنا البعيد. وكيف نحوّل كلّ آلة جديدة نخترعها، أو سرّ جديد نكشف عنه النقاب، إلى مفاتيح نعالج بها أبوابًا ما تزال مغلقة دون أبصارنا وبصائرنا.

إنّه لَمِن المؤسف حقًّا أنّ الإنسانيّة بمجموعها ما تعلّمت تلك المثالة البسيطة بعد. فالناس بأكثريّتهم الساحقة ما يبرحون بأفكارهم وأحاسيسهم نهبًا لطائفة من الأوهام. لعلّ أفظعها الوهمُ بأنّ الأشياء في ذاتها يمكنْ أن تكون خيرًا أو شرًّا، أو منابع سعادة أو تعاسة. في حين أنّها لا تملك القدرة على النفع والضرّ إلّا بمقدار ما نسلّحها نحن بمثل تلك القدرة. فالنار نستخدمها للدفء أو لطهي الطعام هي عين النار نستخدمها لحرق الناس والمساكن. فهي خير إذا استخدمناها للخير وشرٌّ إذا استخدمناها للشرّ. والسيّارة نركبها لزيارة صديق أو لعيادة مريض أو لتفريج كربة

مكروب هي عين السيّارة نركبها للنهب والسلب والدعارة. فهي خيرٌ إذا ساقها الخير وشرّ إذا ساقها الشرّ. حتّى السمّ يصبح ترياقًا في يد الآسي، والترياق ينقلب سمًّا في يد الغدّار.

ومن سوء طالع الناس أنّهم ما أدركوا ذلك بعد. لذلك ما برحوا يتزاحمون على اقتناء الأشياء ويتقاتلون في سبيلها ظنًّا منهم أنّ مَن كثر حطامه قلّت آلامه، ولو فقهوا لعكسوا القول ولأدركوا أنّ قيمة الأشياء في استعمالها لا في ذاتها. وإذ ذاك لمَا جمحت بهم مدنيّتهم مثل جموحها اليوم.

ثمّ هنالك الوهم بأن الإنسان للإنسان أمّا صديق وإمّا عدوّ. أمّا الصّديق فمن الواجب المحافظة عليه. وأمّا العدوّ فمن الواجب محوه من الوجود. ولو أنّ إنسانًا راح يستقصي علاقات صديقه أو عدوّه بكلّ الناس ثمّ بنفسه لَوَجد أنّ لعدوّه عليه فضلًا لا يقلّ عن فضل صديقه. ففي عالم تشابك بعضه ببعض نظير عالمٍ نحن فيه كيف لي ولكم أن نعرف من أين يأتينا رغيف نأكله، وثوب نلبسه، وبيت نسكنه، وصحيفة نطالعها، وخبر نسمعه؟ بل من أين يأتينا فرحُ ساعة أو حزن دقيقة؟

أمّا أن نمحو عدوّنا من الوجود وأن نرتاح بمحوه فوهمٌ فادح قتّال. فالعدوّ في مماته ألدّ منه في حياته. وعداوة تتجاوز حافّة القبر لعداوة أشدّ تنكيلًا وأنقع سمًّا من عداوة لا تبلغ حافّة القبر. فأنت قد تستطيع أن تستغفر عدوّك أو أن تعود فتصادقه ما دام على قيد الحياة. ولكن أنّى لك أن تسترضيه وهو في القبر؟ ويا ليت الناس يعرفون أنّه ما من حرب اندلع سعيرها في الأرض إلّا كان الأموات في عداد محاربيها أكثر من الأحياء.

أتعجبون لسكان القبور يحاربون الأحياء ولا تعجبون للأحياء يأتمرون بأوامر سكّان القبور فيتقيّدون بعاداتهم، ويتمرّسون بتقاليدهم، ويتخلّقون بأخلاقهم، ويتكالمون بلغاتهم، ويتزيّون بأزيائهم، ويدرسون في مدارسهم، ويعبدون في معابدهم، ويتثقّفون بأفكارهم، ويأكلون ويلبسون ويتزاوجون على شاكلتهم؟ إنّ سلطان الأموات على الأحياء لفوق ما يدركه الأحياء والأموات معًا.

إذنْ كان من فادح الوهم أن نحسبنا تخلّصنا من عدوّ بمجرّد نفيه أو سجنه أو قتله. فدمٌ نهرقه، وعظم نكسرهُ، وطفل نُيَتّمه، وبيت نقوّضه على ساكنيه لَدَمٌ سنُكرَهُ يومًا ما أن نُعوّض عنه من دمائنا، وعظمٌ سنُدفع على جبره بعظامنا، وطفل سنحاسَبُ عن يتمِه، وبيت سنُجبرُ أن نقيمه جديدًا من حجارة بيوتنا.

إنّ دماء البشريّة المهدورة لا تنفكّ تصرخ من خلف سجف الزمان، ومن أعماق البحار، ومن شقوق الأرض. وهي تطلب الثأر. وليس من قوّة تردّها عن غايتها إلّا قوّة الغفران، وإلّا قوّة المحبّة. ومن توهّم أنّ الأرض تبلع الدماء البشريّة مثلما تبلع قطراتٍ تنهلّ عليها من مآقي المزن كان على ضلال مبين. فالدمّ البشريّ دمٌ زكيّ. هو دمُ الحياة فينا. ودم الحياة ما كان يومًا شرابًا للتراب وحتّى اليوم ما شربتِ الأرضُ قطرة دم بشريّ إلّا غصّت بها. فيا ويل من يمشون على

الأرض ولا يبصرون الدماء البشريّة المهراقة على وجهها وقد انتصبت أشراكًا وفخاخًا للّذين هرقوها، ولا يسمعون تلك الدماء تصرخ: «الثأر ثمّ الثأر؟»

إنّ مدنيّة تقوم على الوهم بأنّ في قتلنا مَن نحسبه عدوًّا راحةً لنا وسلامة وسعادة لمدنيّةٌ مقضيّ عليها بالصداع والتصدّع.

وهنالك وهمٌ آخر يفعل في عقول الناس وقلوبهم فعل الحميّا وذلك أنّ في استطاعتهم بلوغ الحريّة عن طريق هذا النوع من الحكم أو ذاك. ألا ليت الحريّة كانت وليدة القوانين والدساتير والمعاهدات والوزارات والعروش والتيجان والمجالس النيابيّة وما إليها من آلات الحكم. إذنْ لحظينا بها من زمان. فما أكثر ما سنّه الناس من شرائع، وما أكثر ما جرّبوا من أنواع الحكم والحكّام، وما أكثر ما ثاروا وناضلوا وماتوا في سبيل الحريّة. والحريّة ما تزال رؤيا تزور أحلامهم ولا تلامس يقظتهم بكثير ولا بقليل. وستبقى كذلك إلى أن يدرك الناس أنّهم ما لم يجدوها في قلوبهم وأفكارهم لن يجدوها في أيّ زمان أو مكان، وفي أيّ حكم أو نظام.

ما دام الإنسان شريك الإنسان والبهيمة والحشرة والنبتة في الأرض والسماء، دامت مشيئه مقيّدة بمشيئة هؤلاء كلّهم وربوات سواهم من المخلوقات. فكان آنًا سيّدًا وآونة مسودًا، وحينًا قائدًا وآخر مقودًا. وإذ ذاك فأين حريّته، وما نفعه من تبديل نظام بنظام، وحكّام بحكّام؟

بل إنّه لو أتيح للإنسان السلطان الكامل على الأرض لمَا كان مع ذلك حرًّا. فالأرض ذاتها بعضٌ من عالم لا نعرف حدوده بعد. وهي تخضع لمشيئة ذلك العالم. فكيف للإنسان أن يستقلّ بالأرض ما لم يستقلّ بالمسكونة كلّها؟ أمّا إذا بلغ الإنسان من المعرفة ما يساعده على تفهم مشيئة المخلوقات بأسرها والسيطرة عليها سيطرة لا ينازعه فيها منازع، فعندئذ – لا قبل – حقّ له التلفّظ باسم الحريّة القدّوس.

فجدير بنا، ونحن حيث نحن من الضعف والجهل وقساوة القلب، أن نجعل الحريّة هدفًا جميلًا، متألّقًا، بعيد المنال، بدلًا من أن ننزل بها إلى أسواق السياسة البشريّة ونجعلها سلعة تباع وتشترى بقليل أو كثير من الدم أو المال أو الدهاء أو الشغب والضوضاء. فحريّة نحصل عليها بمثل ذلك الثمن البخس لحرّيّة لا تلبث أن تنقلب في أيدينا صلًا، وفي أفواهنا حنظلًا، وفي أفكارنا ظلمة، وفي قلوبنا أملًا جهيضًا.

يسألني البعض عن الحروب وهل كانت المجزرة الأخيرة خاتمة لها أم أنّنا قادمون على مجازر أشدّ هولًا وأفظع دمارًا منها. وهو سؤال ينطوي على الكثير من السذاجة في التفكير وتقدير الأمور. إذ كيف لمدنيّة تغذّت بلبان الحرب وترعرعت في أحضانها أن تنكر أمّها وتنقلب عليها؟

إنّما تنسل الحروب حروبًا، مثلما تنسل الأفاعي أفاعي، والضباع ضباعًا. ذلك أمر بديهيّ. وبديهيّ كذلك أنّنا ما دمنا نعزو للأشياء القدرة على إسعادنا وإشقائنا، دمنا في صراع دائم للحصول

على ما نرغب فيه، وللنجاة ممّا نرغب عنه. وما دمنا نحسب الإنسان عدوّ الإنسان، ثمّ نحسب أنّ في محقنا للعدوّ خلاصًا لنا من عداوته وراحةً وسعادةً، دمنا نفتّش عن أقرب الوسائل وأنجعها لمحق أعدائنا. وما دمنا نرى الحريّة في استبدال حكم بحكم، وكان لا بدّ لنا من أن نكون حاكمين ومحكومين في آن معًا، دامت مرائرنا عرضة للتفجّر ودامت الحروب والثورات ملاذنا من حكم نراه جائرًا، وسلطان تثقل علينا وطأته.

ومن ثمّ فمدنِيّتنا تجرّ خلفها أثقالًا باهظة من الآثام والموبقات، وتحمل في قلبها من الضغائن والأحقاد ما لو دُفن في جوف طودٍ لحوّله إلى بركان. وصراخ الدماء المهدورة، وعويل المشرّدين والمقعدين والمشوّهين، ونواح الأيتام والأرامل والثكالى في مسامعها ليل نهار. إنّه لعبء ثقيل، ثقيل، ثقيل. وما إخال مدنيّتنا تقوى على القيام به لزمان طويل.

والآن إن تسألوني عن هذه المدنيّة إلى أين مصيرها أُجبكم بغير تردّد: إلى الهاوية.

أأعني أنّ مصير الإنسانيّة كذلك إلى الهاوية؟ كلّا! فالإنسانيّة غير المدنيّة.

إنّما الإنسانيّة بذار إلهيّ باقٍ ببقاء الله. وهذا البذار ينمو شأن كلّ بذار. ولكنّ نموّه غير نموّ حبة القمح تُلقونها في التراب. فهذه لنموّها آنٌ ولنضجها آنٌ. وكلاهما محدود ضمن الزمان والمكان. أمّا الإنسانيّة فأوان نموّها كلّ الزمان، ومكان نموّها كلّ المكان. ونُضْجها هو معرفة الله والاتحاد بالله. وما المدنيّات تمرّ بها في طريقها إلى الله سوى مراحل في نموّها وسوى اختبارات تتمرّس بها لتزداد قوّة على المضيّ في سبيلها الشائك وإيمانًا بأنّ الهدف جدير بكلّ ما تتجشّمه في سيرها من مضض وحرمانٍ وألمٍ وموتٍ. وكلّ مدنيّة باقية ما دام للإنسانيّة منها مساعد على التفتّح والنموّ. أمّا متى أصبحت المدنيّة عقبة في سبيل الإنسانيّة وحجر رحًى في عنقها فذاك دليل على أن مهمتها انتهت وأجَلها اقترب. وفي اعتقادي أنّ المدنيّة الحاضرة تعالج اليوم غمرات الرّدى.

ولَكُم أن تسألوني: مَن الذي يحدّد لكلّ مدنيّة أجلها؟ أهي المدنيّة عينها؟ أم هي الإنسانيّة؟ أم هي قوّة خفيّة من وراء المدنيّة والإنسانيّة؟

لست أجهل ما في هذه الأسئلة من التحدّي والإثارة لقوم ينكرون كلّ قوّة إلّا قوّة الطبيعة العمياء. أو لقوم يؤمنون بأنّ الإنسان قد بلغ من المعرفة شأوًا يستطيع معه أن ينظّم حياته ويدبّر أموره حسب هواه ودون أقلّ تدخّل من قوى فوق قواه. أو لقوم آخرين لا يعترفون للإنسان ولا للطبيعة بقوّة التنظيم والتدبير. بل يقولون إنّ الكون وكلّ ما في الكون نتيجة لمصادفات لا تعقل ولا تتقيّد بأيّ نظام. فهي تجري على غير ما هدى وإلى غير ما غاية.

ما أنا من الذين ينكرون على الغير ما لا ينكرونه على أنفسهم. وأعني الحقّ بأن يقف كلّ من الحياة الموقف الذي يرضاه فكره وقلبه وخياله. والموقف الذي يرضاه فكري وقلبي وخيالي دون كلّ المواقف، هو أن الإنسان طفلٌ إلهيّ انطوى كيانه على كلّ قوى الألوهة ومنها معرفة كلّ شيء

والقدرة على كلّ شيء. نظير ما ينطوي كيان الطفل البشريّ على قوى الرجولة الكاملة أو الأنوثة الكاملة، ونظير ما تنطوي أيّة بذرة على صفات النبتة التي هي منها.

ومثلما ينمو الطفل مدفوعًا بقوى النموّ الكامنة فيه، فيمشي ولا يعرف الدافع له على المشي، ويتكلّم ولا يفقه القوى الباطنة التي تدفعه على الكلام؛ ومثلما تتفتّح البذرة بالتدريج عن شجرة من غير أن تعلم شيئًا عن القوانين التي تعمل على تفتّحها، هكذا ينمو ذلك الطفل الإلهيّ الذي هو الإنسان ويتفتّح غير عارف كيف ينمو ولماذا يتفتّح. ولكنّه سيعرف، وسيجد في المعرفة القدرة، وفي القدرة الحريّة. ودليل ذلك ما يتململ فيه من أشواق لافحة إلى معرفة كلّ شيء، وإلى القدرة على كلّ شيء، وإلى الانعتاق من كلّ قيد. فالمعرفة والقدرة والحرّيّة ليست كلمات في القواميس لا غير، ولا هي أوهام وأضغاث أحلام. إنّها القوى الكامنة في الإنسان التي ما تنفكّ تدفعه على النموّ والتفتّح. وإنّها الهدف الأبعد للإنسان من حياته.

أمّا المدنيّات بأنواعها فوسائل يتذرّع بها الإنسان لبلوغ الهدف وقطّ ما كانت أهدافًا في ذاتها يليق بالإنسان أن يتلف في سبيلها الأعمار ويهرق الدماء أنهارًا. والوسيلة شيء مشكور وجدير بالاهتمام ما دامت جميلة ونافعة ومسدّدة إلى الهدف. ولكنّها حالما تصبح هي الهدف تفقد نفعها وجمالها وتغدو غشاوة على أبصارنا، وضبابًا في أفكارنا، وأقفالًا لقلوبنا، وسلاسل لأرجلنا وأيدينا. وإذ ذاك فالقوى الباطنة في الإنسان – قوى النموّ الإلهيّ – تقضي بموتها وانحلالها مهما يكن في موتها وانحلالها من وجع للإنسان المتمسّك بها، والهائم بمحاسنها الخدّاعة.

إنّ قوى النموّ الكامنة في الإنسانيّة والتي تدفعها دائمًا أبدًا على السير نحو المعرفة والانعتاق – نحو الله – هي التي ستقضي على المدنيّة الحاضرة بالموت وبولادة مدنيّة جديدة.

ستنهار هذه المدنيّة. وسيكون لانهيارها دويّ مروّع. وستنهار بانهيارها ملايين القلوب الخاوية من الإيمان بالله وحكمته وعدله. فيكون بكاء، ويكون عويلٌ، ويكون انسحاق. وستلتوي الإنسانيّة، ولكنّها لن تنكسر. وتكبو ولكنّها لن تتحطّم، فهي أبقى من كلّ ما تخلقه من مدنيّات، وأقوى من كلّ ما تعتمد عليه من قوى الأرض. لأنّ من أمامها ومن خلفها وفي وسطها القدرة التي تغيّر ولا تتغيّر، والحياة التي تُميت ولا تموت.

الدّينُ وَالدُّنيا

بين الدين والدنيا حرب سجال. فالدين لا يني يحثّ المؤمنين على الزهد في الدنيا لأنها «دار فناء»، وعلى التطلّع إلى الآخرة لأنها «دار بقاء». والدنيا لا تنفكّ تغريهم بمفاتنها وتصرفهم عن التفكير في الآخرة.

وددت لو يقوم من يجمع كلّ ما قيل في ذمّ الدنيا عند مختلف الشعوب منذ أقدم العصور حتّى اليوم. ففي العربيّة وحدها ما يملأ مجلّدات فوق مجلّدات. وإليك بعض الأمثلة كهذا الحديث وهو قليل من كثير:

«إنّ هذه الدار دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح. فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء. ألا وإنّ الله تعالى خلق الدنيا دار بلوى والآخرة دار عقبى. فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سببًا، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضًا. فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي. إنّها لسريعة الذهاب، وشيكة الانقلاب. فاحذروا حلاوة رضاعها لمرورة فطامها. واحذروا لذيذ عاجلها لكريه آجلها. ولا تسعوا في تعمير دار قضى الله خرابها. ولا تواصلوها وقد أراد الله منكم اجتنابها. فتكونوا لسخطه متعرّضين ولعقوبته مستحقّين.»

وقول الإمام عليّ وهو كذلك قليل من كثير: «إنّ دنياكم لأهون عليّ من ورقة في فم جرادة تقضمها. ما لِعلِيٍّ ونعيم يفنى، ولذّة لا تبقى؟»

وقول أحد الشعراء:

إنّما الدّنيا فناء / ليس للدنيا ثبوت

إنّما الدّنيا كبيت / نسجته العنكبوت

كلّ ما فيها لعمري / عن قريب سيفوت

ولقد يكفيك منها / أيّها العاقل قوت

ثمّ قول أحد البلغاء:

«الدنيا إن أقبلت بلت، وإن أدبرت برت، أو أطنبت نبت، أو أركبت كبت، أو أبهجت هجت، أو أسعفت عفت، أو أينعت نعت، أو أكرمت رمت، أو عاونت ونت، أو ماجنت جنت، أو سامحت محت، أو صالحت لحت، أو بسطت سطت.»

ومرثيّة أبي الحسن التهاميّ لابنه ما تزال لها شهرتها حتّى اليوم. ومن أبياتها في ذمّ الدنيا قوله:

«طُبعت على كدر وأنت تريدها / صفوًا من الأقذاء والأكدار
ومكلِّف الأيّام ضدّ طباعها / متطلِّبٌ في الماء جذوة نار
والعيش نوم والمنيّة يقظة / والمرء بينهما خيال ساري»

كان من حملة الدين على الدنيا أن بلغ الزهد ببعض المتعبّدين ضروبًا من التقشّف وتعذيب الجسد تكاد لا تصدَّق. فأمر «الفقراء» في الهند كان وما يزال معروفًا حتّى اليوم. فقد ينقطع أحدهم عن الطعام أيّاما تلو أيّام. وعن الكلام شهورًا وسنين. وقد ينام على المسامير المحدّدة، أو يجلس القرفصاء فلا يتحرّك في خلال ساعات طويلة. كلّ ذلك تشفّيًا من النفس «الأمّارة بالسوء» وتطهيرًا لها من غوايات الأرض ورجاساتها كيما تنعم، بعد الغلبة، بمعرفة الحقّ فتتّحد «بالذات العالميّة» حسب التعاليم الهندوكيّة، أو تحظى بغبطة النرفانا حسب التعاليم البوذيّة.

وجاءت المسيحيّة تبشّر بـ«ملكوت الله» وتحضّ المؤمنين على جعله الهدف الأوّل والأخير من حياتهم: «اطلبوا أوّلًا ملكوت الله وبرّه». وتنذر الصادفين عنه بأوخم العواقب وأقسى ضروب العذاب «حيث نارهم لا تهدأ ودودهم لا ينام». فينتشر الزهد في الدنيا انتشارًا هائلًا في العصور المسيحيّة الأولى، وتكثر الأديار والمناسك التي يحتبس فيها الرجال والنساء عن العالم، ناذرين العفّة في كلّ شيء، ومنصرفين إلى العبادة هربًا من آلام جهنم وطمعًا بغبطة النعيم. ويبلغ الزهد ببعضهم حدّ تعذيب النفس والجسد إلى درجة لا تُطاق. من هؤلاء سمعان العموديّ وفرنسيس الأسّيزي – وأذكرهما على سبيل المثال لا أكثر.

فسمعان العموديّ الذي وُلد وعاش في شمالي سوريا (390-459) كان راهبًا في دير. وقد جاوز حدّ المعقول في تقشّفه فعوقب بالطّرد. فما كان منه إلّا أن نصب عمودًا يعلو عشر أقدام وجعل في رأسه دكّة صغيرة وعلى تلك الدكّة راح يقضي ما تبقّى من حياته غير مبال بالعري والجوع، والحرّ والقرّ، ولا بسخرية الناس. وظلّ يزيد في ارتفاع عموده حتّى بلغ ستّين قدمًا. ولذلك لُقّب بالعموديّ ثمّ أصبح من القدّيسين.

والقديس فرنسيس الأسّيزي (1182-1226) نذر على نفسه العفّة والفقر اقتداء بالمسيح. فما كان يملك من حطام الأرض غير الثوب الذي على جسده. وكان يقسو على ذلك الجسد فيجلده كلّما تمرّد عليه. فلا يندر أن ينهض في الليل ويدعو أحد رفاقه ثمّ يتوسّل إليه أن يجلده بغير شفقة.

ولماذا؟ لأنّه حلم حلمًا غير لائق برجل نذر العفّة وطلّق الدنيا فلا يهمّه منها غير فعل الخير في سبيل قريبه قبل نفسه.

وجاء الإسلام فنادى هو كذلك بالحياة الآخرة، واعدًا الصالحين بجنّات تجري من تحتها الأنهار، ومنذرًا الأشرار بنار جهنّم. فامتدّ الزهد بين الذين أخلصوا لدينهم منتهى الإخلاص، وباتت الدنيا ومباهجها في أنظارهم شراكًا يترتّب عليهم تجنُّبها. إذ إنّ الوقوع فيها يؤدّي حتمًا إلى النار. وانتشر التصوّف بين العقلاء. ومع التصوّف الزهد والتقشّف. فلا عجب أن تسمع ابن الفارض يقول واصفًا نحول جسده الناجم عن فرط شوقه إلى الحقّ والخلاص:

«قل تركت الصبَّ فيكم شبحًا / ما له ممّا براه الشوق فيّ
كهلال الشّكّ، لولا أنّه / أنّ، عيني عينه لم تتأيّ»

إنّه ليخيّل إلى من يطالع سِيَر الأنبياء والأولياء والقدّيسين أن الدين تغلّب على الدنيا أو كاد. ولكنّ الواقع هو العكس بالتمام. فالدنيا ما تزال سيّدة الميدان. والأكثريّة الساحقة من الناس ما تزال تسعى سعيًا محمومًا إلى استرضائها بأغلى التضحيات. فإن وقعتَ اليوم على زاهدٍ فيها فهو أمّا قانط خانه الحظ فانهارت عزيمته، وفرّ الأمل من قلبه. وإمّا متشائم لا يبصر من الحياة غير ما امتدّ منها ما بين المهد واللحد. فهي تسير على غير هدى وإلى دونما غاية غير الفناء في الموت. وإمّا فيلسوف ينشد الحقيقة التي كانت قبل الولادة وتبقى بعد الوت. فهو زاهد في كلّ ما من شأنه أن يعرقل خطاه في التفتيش عن الحقيقة التي ينشد. ولعلّ ديوجينوس في برميله هو أبرز مثال للفيلسوف الزاهد في زخارف الدنيا وبهرجاتها.

وأنا لو خُيّرت بين زهد المتعبّد الذي يخشى عذاب الجحيم ويطمع في سعادة النعيم وبين زهد الفيلسوف الذي ينشد الحقّ لوجه الحقّ لاخترت الأخير. فالزهد يفرضه الخوف من الألم، أو الطّمع في اللذّة، هو غير الزهد تفرضه المعرفة. ذلك يذهب بذهاب الخوف. وهذا يبقى ببقاء المعرفة. والمعرفة لا تكون إلّا بالاختبار. لذلك تسطو الدنيا على الناس. فلا يزهد فيها زاهد إلّا بعد أن يخبرها خبرة تنتهي به إلى المعرفة. فلا تخدعه ظواهرها عن بواطنها، ولا تصرفه حلاوتها عن التفكير في مرارتها. وإذ ذاك فدافعه منه وفيه، ورادعه منه وفيه، ووجدانه هو الحَكَم في أمر ما ينبذه من الدنيا وما يتمسّك به.

إي، جميل هو زهد العارف. وليس كذلك زهد الخائف. والدنيا إن تكن في نظر البعض باب الآخرة فهي من غير شكّ باب المعرفة التي تجعل للآخرة قيمة ومعنى. وليس يصحّ أن يزهد فيها إلّا الذين خبروها فاهتدوا إلى جميع أقفالها ومفاتيحها. ومن ثمّ ففي الدنيا من النظام والحكمة ما إذا نفذنا إلى أغواره أطللنا منها على دنيوات من الروعة التي لا تصدأ والجمال الذي لا يذوي. ولن

ينفذ إلى أغواره الذين يزهدون فيه ويُدبرون عنه. بل الذين يُقبلون عليه بخشوع المتعبّد ووله المتيَّم.

إني لأشفق على الزاهدين في الدنيا قنوطًا أو تشاؤمًا. وأشدّ من إشفاقي على هؤلاء هو إشفاقي على الزاهدين في شيء زُهدَ الثعلب في العنقود الذي لا وصول له إليه. أو زهد اللّصّ في سرقة بيت جاره مخافةً من الحارس على الباب، أو من القاضي على قوس المحكمة. أمّا الزاهدون في الدنيا زهدَ الطالب في كتاب الألفباء من بعد أن أتقن الصرف والنحو وفنون البلاغة فلهم مني منتهى الإجلال والإكبار.

أولئك هم الذين تعمّقوا في درس الحياة ومسالكها ومراميها، والذين قلبوا الدنيا بطنًا لظهر وظهرًا لبطن فباتوا لا يخدعهم منها سراب، ولا يضلّهم عن طريقهم ضباب. إلّا أنّهم أبدًا قلّة ضئيلة – وجدّ ضئيلة – في الأرض.

أمّا الذين ليسوا من تلك القلّة – وهم الكثرة الساحقة – فلهم أقول:

لا تزهدوا في دنياكم. بل أقبلوا عليها بلهفة ونهم. فإذا كنتم جياعًا وقال لكم قائل: ازهدوا في خبز الدنيا. فخبز الآخرة أشهى وأبقى. – قولوا له: أعطنا أولًا أن نشبع من خبز الدنيا لعلَّنا إذ ذاك نجوع إلى خبز الآخرة.

وإذا كنتم عبيدًا في الأرض وقيل لكم: ازهدوا في حريّة الأرض. ففي السماء تنتظركم حريّة لا توصف. – أجيبوه: مَن لم يتذوّق الحريّة في الأرض لن يعرف طعمها في السماء.

وإذا كنتم مظلومين في «دار الفناء» وجاءكم من يقول لكم: ازهدوا في عدل هذه الدار الفانية تحظوا بعدل الدار الباقية. – قولوا له: ليكن عدل هذه الدار دليلنا إلى عدل تلك الدار. أليس أنّ ربّ الدارَين واحد؟

أمّا أن تزهدوا في الدنيا وبكم جوع صارخ إليها فأمر لا تطيقه الدنيا ولا ترضى به الآخرة.

الحزنُ والحَزانى

أُحبّ الحزن والحزانى. فللحزن جلال ليس للفرح.

أُحبّ الحزن ناسكًا في القلب، مهيبًا في عزلته، رائعًا في صمته، وقورًا في خشوعه، وديعًا في كبريائه. إذا أطلّ على العالم من حدقة العين فكما يطلّ الفجر على أرض جرّدها الشتاء من حلاها وما جرّدها من حلاوة الأمل بتجديد نضرتها في الربيع. وإذا انتشر في أسارير الوجه فكما ينتشر الحلم اللطيف على وجه طفل في السرير. وإذا مشى في الأرض فبخفّة وجلال كما يمشي ظلّ سحابة في الصيف.

وأُحبّ الحزن جليسًا يحدّثني بهدوء ورصانة في أمور وأمور، ولكنّه لا يحدّثني عن نفسه. فيعظني من حيث لا يقصد الوعظ. ويواسيني وهو بالمواساة أولى.

وأُحبّ الحزن باسطًا كفّه للإعطاء لا للاستجداء. متعاليًا عن شماتة الشامتين وشفقة المشفقين. لا يحسد ضاحكًا على ضحكه، أو خالي البال على خلوّ باله. ولا يضيق صدره بالغادين والرائحين في شؤون البطون التي لا تشبع والجيوب التي لا تمتلئ.

وأُحبّ الحزن يلتفت مرّة إلى الوراء ومرّات إلى الأمام. فلا يأسف على ما كان. بل يتخذ منه درعًا لمجابهة ما سيكون.

وأخيرًا أُحبّ الحزن يقطع بالمحزون أبديّات ولا نهايات – وذلك في مثل طرفة العين. حتّى إذا عاد المحزون إلى نفسه تبخّر الحزن من قلبه وحلّت محلّه طمأنينة لا يرقى إلى أعتابها حتّى ولا صدى من أصداء الحزن والفرح.

وأمّا الحزن البهلوان الذي يريك ضروبًا عجيبة من نتف الشعور، وقرع الصدور، وشقّ الجيوب، وتخديش الوجوه، ولبس المسوح، ونبش القبور. والذي يتدحرج من العينين عبرات ساخنات، أو يقفز من بين الشفتين آهاتٍ لاهبات، وصرخات منكرات، وتفجّعات خانقات.

والذي يستجدي الرحمة والشفقة بكلّ جوارحه وبملء رئتيه – يستجديهما من القريب والغريب ومن عابري السبيل.

والذي يتّخذ لنفسه شاراتٍ فارقة مخافة أن تمرّ به عين فلا تدرك أنّه الحزن، أو تسمع صوته أُذُن فلا تعرف أنّه صوت الحزن. فثوبٌ بلون اللّيل، أو شريطة فحماء في عروة، أو خط أسود في زاوية رسالة، أو نحو ذلك من الشارات التي استقلّ بها الحزن دون سواه. فكأنّه يقول للناس: «أنا الحزن أيّها الناس. فحذار أن يغنّي في حضرتي مغنّ، أو أن يعزف عازف، أو أن يرقص راقص، أو أن يضحك ضاحك. وحذار أن تتحدّثوا معي إلّا عنّي. أنا الحزن – وكفى!»

أمّا ذلك الحزن فقد أُشفق عليه ولكنني لا أستطيع أن أُحبّه. بل إنّني أمقته. ومقتي له أشدّ وأعظم من شفقتي عليه. فهو إن حدّثني عن شيء فعن ميوعة في القلب، وانقباض في الفكر، ووهن في الروح. والذين ماعت قلوبهم، وانقبضت أفكارهم، ووهنت أرواحهم ليس يجديهم فتيلًا أن تكون لهم سواعد مفتولة، ورقاب غليظة، ومناكب عريضة، وأعمدة فقرية تحمل فوق ما تستطيع حمله الجمال والبغال. مثلما لا تجديهم الدور الفسيحة، والتحف الغالية، والجاه العريض، والمال تضيق به الصناديق.

لعلّك لو فتّشت عن مقياسٍ تقيس به رقيّ الأفراد والأمم في سلّم الوجود لما وجدت أدقّ وأصدق من الحزن مقياسًا – وعلى الأخصّ في حضرة الموت. فالذين يحضنون أحزانهم على موتاهم بصبر وصمت وإيمان، مثلما تحضن الدجاجة الرّاخم البيض، لأبعد بكثير في مضمار البقاء من الذين يذيعون أحزانهم بعواء ولا عواء الذئاب، وولولة ولا ولولة الريح في قعر واد، وبانتحاب يقطّع أوتار الحناجر ونياط القلوب. حتّى لتحسب أنّهم قد ذهبت عقولهم. أو أنّهم ما سمعوا بعد بالموت. فكأنّه ما زارهم من قبل، ولا زار غيرهم من سكّان الأرض. فميتهم أوّل من مات، وسيكون خاتمة الأموات.

وفيمَ التفجّع على الموتى؟ فإمّا أن يكون الموت محقًا للشخصيّة البشريّة. وإذ ذاك فما هي من القيمة والأهميّة بحيث تستحقّ عَبرة من عين، أو زفرة من صدر. وإمّا أن يكون الموت انتقالًا بتلك الشخصيّة من حال إلى حال. وإذ ذاك فالحزن عليها لضربٌ من الخبال.

أليس من الأحرى بالواقفين في حضرة الموت أن يسألوا عن تلك العجيبة التي ندعوها الموت كيف تمّت، وبسحر أيّ ساحر توقّفت رئتا إنسان سويّ عن الحركة، وقلبه عن النبض، ودمه عن الجري، وتحوّل النور في عينيه ظلامًا، وطارت منه الحرارة، ومع الحرارة الفكر والشعور، ومع الفكر والشعور جميع مظاهر الحياة؟ فغدا ولا فرق بينه وبين الحطبة أو الحجر أو أيّ نوع من الجماد. فهم لو فكّروا في ذلك لشغلهم تفكيرهم فيه عن الحزن عليه، ولما بدا لهم الموت ذلك الشبح

الرهيب الذي تنهار لرؤيته أعصابهم، وتغيم أبصارهم، وتتعطّل مداركهم، ويستولي الذعر على قلوبهم فتفيض دموعًا من مآقيهم، وتنطلق آهاتٍ من حناجرهم.

وإنّه لمن الغريب حقًّا أن تكون للموت رهبة في هذا الشرق ليست له في أيّ بقعة أخرى من بقاع العالم المتمدِّن. وهذا الشرق هو الذي بشّر النّاس من زمان بحياة بعد الموت. أيكون أنّه لا يؤمن بما يقول؟ أو أنّه يفعل عكس ما يقول؟ أو أنّه قال ما قال ثمّ ندم على ما قال؟ وإلّا فمن أين مآتمه الهمجيّة التي تفضح كلّ ما في قلبه من ميوعة، وما في فكره من انقباض، وما في روحه من وهن؟

ثمّ ما قولك في الحزن على الأموات يتدثّر بالسواد وينقطع زمانًا عن كلّ ما من شأنه أن يغسل القلب منه؟ ذلك ما يدعونه الحداد. وله في شرع الناس أصول يعملون بها، وتقاليد لا يحيدون عنها. وإن هم تهاونوا فيها سلقهم الناس بألسنتهم سلقًا. فالويل لمحزون إذا هو لم يلبس الحداد، أو إذا هو نزعه عنه قبل الأوان. والويل له إذا ضحك، أو إذا عنّ له أن يطرد الحزن بنغمةٍ أو ببسمةٍ أو بمشهد يشيع في النفس راحة وطمأنينة وسلامًا حتّى وإن تكن النفس في جوع ممضّ إلى الراحة والسلام والطمأنينة.

وما أكثر ما يكون الحداد خدعةً وذرّ رمادٍ في العيون! فيكون القلب في مهرجان من النور. أمّا ظاهر الجسد ففي لُجّةٍ من الديجور! حتّى الحزن أدركته حمّى التزييف. فأصبح من العسير تمييز صادقه من كاذبه. ولا عجب. فنحن نعيش في زمان جُلّ قِيَمه مزيّفة.

لا مفرّ من الحزن في دنيا يتهالك أهلها على الفرح. فالحزن هو الظلّ الملازم للفرح، مثلما الليل هو الظلّ الملازم للنهار، والموت هو الظلّ الملازم للحياة. ولكنّ للحزن رسالة إذا فهمها المحزون خفف كثيرًا من ثقل حزنه. ولعلّه إذا تلقّاها بصدر رحب، وفكر جريء، وروح قويّ تمكّن في النهاية من القضاء قضاء مبرمًا على جميع أحزانه، حتّى وإن هو قضى بذلك على جميع أفراحه. ففي المدى البعيد – وراء سُجُف الزمان والمكان – حياة لا يشوبها حزن طارئ ولا يعكّرها فرح عابر. فهي فوق الحزن والفرح.

وما هي رسالة الحزن؟ إنّها الدعوة إلى المحزون لتفقّد ما في نفسه من أجهزة خفيّة وظاهرة تجذب الحزن إليه نظير ما يجذب المغنطيسُ الحديد – سواء بسواء. وهذه الأجهزة قد تكون أفكارًا، أو أعمالًا، أو شهوات، أو كلّ هذه مجموعة. فمن شأن الأفكار والأعمال والشهوات أن تجذب إليها ما كان من جنسها. فهي كالأرواح ما تعارف منها ائتلف. وما تنافر اختلف. وهي في تعارفها وتنافرها لا تشذّ قيد شعرة عن الناموس الذي يقوم عليه الكون، والذي لا يمكّنك أن تجني من الشوك عنبًا ومن العوسج تينًا. فالأحزان من أيّ نوع كانت – تأتيك وحدك – هي نتيجة لأفكار وأعمال وشهوات تفرّدت بها وحدك. كأن تنقضّ صاعقة على بيتك دون باقي البيوت. والأحزان

يشترك فيها جماعة من الناس هي ثمرة الأفكار والأعمال والشهوات المشتركة في تلك الجماعة. كأن يمرّ زلزال ببلاد دون سواها. أو تجتاح حرب طاحنة بلادًا كثيرة، أو العالم بأسره، كما كانت الحال في الحرب الماضية، وكما ستكون في الحرب القادمة – ولكن على نطاق أوسع وأفظع بكثير. وما ذلك إلّا لأنّ العالم، وقد تقلّصت مسافاته، وزالت حدوده، بات وحدةً تشترك في الكثير من أفكارها وأعمالها وشهواتها فبات على جميع الشعوب أن تتحمّل نتائجها معًا – كلّ على قدر نصيبه فيها.

ولأنّ للحزن مثل هذه الرسالة النبيلة فمن السّخف – بل من الإساءة للنفس – أن نتقبّلها بالتفجّع والعويل والنحيب، أو بالعتاب والامتعاض والتشكّي، كما لو كانت موجّهة إلى غيرنا وقد جاءتنا خطأ. أو كأنّنا لسنا منها بِخَلّ أو بخمر. ومن الضعف أن تضيق بها صدورنا، وتميع لها قلوبنا، وتنقبض دونها أفكارنا، وتهن لديها أرواحنا.

إنّما الحزن مِحكّ لمعدن الرجال والشعوب. فالذين حزنهم يصخب ويضجّ، وينتحب ويتفجّع، ويستغيث ويستعطي، ليسوا غير أطفال تروّضهم الحياة على السير في طريقها الشائك، الطويل. ولكنّها لا تختارهم للقيادة.

أمّا الذين حزنهم يربأ بنفسه عن الضجيج والعويل، وعن مذلّة الشكوى والاستجداء، ولذلك يتنسّك في القلب ليؤدّي رسالته كاملة صافية – فأولئك تُسَرُّ الإنسانيّة بأن تضمّهم إلى أبنائها العظام، وتُسرّ الحياة بأن تنتدبهم للقيام بمهامّها الجسام.

فُقَراء

إذا شاء إنكليزيّ أن يصف رجلًا في منتهى الفقر قال إنّه «أفقر من فأر في كنيسة». وهو وصف بليغ. فالفأر لا يجد في الكنيسة ما يستطيع قضمه وهضمه، أو اختزانه في جحره. بل إنّه لا يجد جحرًا يأوي إليه ويختبئ فيه. وأبلغ من هذا الوصف بكثير هو وصف العرب لمثل ذلك الرجل بقولهم إنّه «مدقع» أو إنّه «لا يملك شروى نقير». فالمدقع هو اللاصق بالدقعاء لفرط ما به من هزال وجوع وفاقة ومذلّة. والدقعاء هي الأرض أو التراب. أمّا النقير فهو الشقّ الذي في نواة التمرة. فهل أفقر ممّن ألصقته الحاجة بالتراب، أو ممّن لا يملك من حطام الأرض حتّى مثيل شقّ من نواة تمرة؟ ذلك، لعمري، هو الفقر الذي ما بعده فقر.

من الأكيد أنّ جميع الفقراء في الأرض ليسوا فأرًا في كنيسة، ولا هم مدقعون، أو من الذين لا يملكون شروى نقير. ولكنّه من الأكيد كذلك أنّ في الأرض آلاف الآلاف من الذين يشبعون يومًا ويجوعون أيّاما. والذين يفترشون التراب ويلتحفون أديم السماء. والذين يستجيرون من البرد بالبرد ومن الرمضاء بالرمضاء. والذين إذا شبعوا يومًا فمن فضلات يبتاعونها بماء الوجه، ودم القلب، وكسر الجفن، وجرجرة الكرامة في حمأة الاستعطاف والاستجداء. «من مال الله يا سيدي. حسنة لهذا الفقير المسكين». وإذا ستروا عريهم فبأسمال خيوطها في حشرجة دائمة. وإذا وجدوا لهم ملجأ فسقفه وجدرانه في نفار، وفي قلق أبديّ من ريح إذا هبّت، ومن ديمة إذا انصبّت، ومن برق إذا لعلع، ورعد إذا قصف.

وهنالك الذين فرغت جيوبهم من المال، وخلت مساكنهم من الخيرات ولكنّهم ما فرغت قلوبهم من الشعور بكرامة الإنسان، ولا خلت أرواحهم من العزم. فهم لا يمدون يدًا للاستجداء ولا يتمرّغون على أعتاب الأغنياء. إلّا أنّهم يعيشون بمنتهى التقتير، ومن يوم ليوم، ومن «يدهم لفمهم» على حدّ التعبير العامّي.

قد يكون الفقر درجات. ولكنّه فقر أكان في الدرجة الصفر أم في الدرجة الخمسين. وقد يكون الفقراء أصنافًا. ولكنّهم فقراء أكانوا مدقعين أم كانوا يملكون شروى ألف ألف نقير. فالمهمّ لا أن نصنّف الفقر والفقراء نظير ما نصنف البصل والفجل أو الثوم؛ بل المهمّ، ما دمنا لا ننكر وجودهم، أن نحاسب أنفسنا عنهم. لعلّنا إذا صدقت نيّتنا وأخلصنا في محاسبتنا اهتدينا إلى المسحة السحريّة التي نستطيع بها أن نمحو الوصمة الكبرى عن جبين الإنسانيّة . وتلكم الوصمة هي الفقر.

لقد لازم الفقر البشريّة منذأن راحت تعيش جماعات جماعات فخلقت القانون. وخلق القانون الحقوق والواجبات. وفي جملة الحقوق التي خلقها القانون، ثمّ جنّد للدفاع عنها كلّ قوى الجماعة، حقّ الملكية الفرديّة وحقّ التصرّف بها تصرّفًا يكاد يكون بغير قيود أو حدود بما في ذلك حقّ توريثها من السلف للخلف. فكان من الطبيعي أن تتضخّم هذه الملكيّة في أيدي البعض من ذوي الذكاء والدهاء والنشاط والسلطان – وهم القلّة. وأن تتضاءل أو تتقلّص من أيدي الذين أقلّ منهم ذكاء ودهاء ونشاطًا وبغير سلطان – وهم الكثرة. فكان الفقر وكان الفقراء.

ولقد شادت الإنسانيّة على مدى تاريخها الطويل مدنيّات وحضارات بغير عدّ. ولكنّها ما شادت بعد مدنيّة أو حضارة استطاعت أن تقضي معها على الفقر. فالفقر ما تزال مراتعه خصبة في جميع بقاع الأرض – حتّى في البقاع التي يفور ترابها بالخيرات، وتتشقّق صناديقها بالأموال، وتجري أنهارها لبنًا وعسلًا. لئن اختلفت بلاد عن بلاد من هذا القبيل فبالنسبة لا أكثر. وجُلّ ما فعلته مدنيّة اليوم في مداواة الفقر هو اعترافها به علّة غير قابلة للشفاء، ووصمة لا تزيلها رقية راقٍ ولا يجدي فيها سحر ساحر. والبلدان التي تعتز بأسبقيتها في مضمار الحضارة وفي الشعور الإنسانيّ تباهي بأنّها نظّمت الفقر ونظّمت المساعدة للفقراء. فلست ترى فيها بشرًا يجولون الشوارع ويطرقون الأبواب. وترى ملاجئ تعجُّ بالمقعَدين والفقراء. وتسمع بمؤسّسات لا عمل لها غير جمع الإحسان لأولئك المقعَدين والفقراء.

ألا بئس الإحسان دواء للفقر. فالإحسان يتصدّق به إنسان هو انتهاك سافر لحرمة الإنسان في المحسِن والمحسَن إليه على السواء. وهو تخدير مجرم لضمير المعطي، وتحقير بالغ لكرامة الآخذ. فما أكثر ما يعتزّ المحسن بإحسانه وما أكثر ما يظنّ أنّه بتنازله عن درهم من دراهمه لمتسوّل يعترض طريقه، أو لجمعيّة خيريّة تقرع بابه قد استمال إليه قلب الله فضمن لذاته ولذويه العافية والثروة والرفاهية في الدنيا، ومتكأ فسيحًا وناعمًا في الآخرة. وما أكثر ما يستطيب أن يلقبه الناس بالمحسن الكبير. ولو أنّ المحسِن والمحسَن إليه اجتمعا يومًا لتصفية ما بينهما من حساب تصفية دقيقة شاملة لتبيّن أن للثاني في ذمة الأوّل أضعاف أضعاف إحسانه إليه.

ما نام إنسان على الطوى إلّا لأنّ غيره أكل أو اختزن فوق حاجته من خيرات الأرض والسماء. ولا افتقر رجل إلى ثوب إلّا لأنّ لجاره ثوبين. ولا افترش معدم الصخر والتراب إلّا لأنّ موسرًا

افترش الحرير وريش النعام. فمن نهم المتخمين جوع الجائعين. ومن أناقة المتأنّقين عري العراة. ومن بطر المترفين تشرّد المتشرّدين. وهذا التفاوت في حظوظ الناس من نِعَم العيش ليس مردّه إلى أن البعض يعمل بغير ملل والبعض يقتله الكسل. فلولا المحراث والمعول، ولولا الإبرة والمنوال، ولولا الشاقوف والمنشار وما إليها من الوسائل التي استنبطها الإنسان لاستثمار خيرات الأرض لما كانت تخمة المتخم، وأناقة المتأنّق، وبطر المترف. وهذه الوسائل كلّها لا يديرها إلّا الذين لا يعرفون التخمة والأناقة والترف. وهم في الغالب من الفقراء.

لا. ما ركب الفقر جانبًا كبيرًا من الإنسانيّة لأنّ بعضها يعمل وبعضها لا يعمل. بل لأنّ ضميرها قد تحجّر في ظل نظام يخوّل من لا يعمل أن يعيش خيرًا ممّن يعمل. وما تحجّر ضميرها إلّا نتيجة لفساد نُظمها. وما فساد نُظمها إلّا عاقبة لفساد تفكيرها. ففقرها المادي هو الظلّ لفقرها الروحي. وأعني الفقر إلى تفهم الإنسان غايته من وجوده وغاية الوجود منه. فلو أنّ بني الإنسانيّة فهموا أيّ كائن عجيب وعظيم هو الإنسان، وأيّ مجد هو المجد المعدّ له في ضمير الزمان، لما أغمض لهم جفن ولا ارتاح عضل في زند أو وريد في دماغ حتّى يقضوا على آخر أثر للفقر في الأرض. فما دام في الناس فقير واحد دام الناس كلّهم فقراء.

إلّا أنّ الناس لاهون عن فقرهم الروحيّ بفقرهم الماديّ. فهم لا يعرفون فقرًا غيره. ومثلهم في ذلك مثل ثريّ أخبرني عنه بعض الظرفاء. فقد كان ذلك الثريّ يلعب النرد مع أحد الجيران. وكان الظريف الذي نقل إليّ الخبر يراقب اللعبة. وإذا بالثريّ يقوم بحركة لم تكن في صالحه. فما تمالك الظريف عن لفت نظره إلى الخطإ بقوله «يا فقير... لقد خسرت المعركة». فما كان من الثريّ إلّا أن طرح الزهر من يده بغضب، وامتقع لونه، والتفت إلى الظريف بعينين تقدحان شرارًا ثمّ صاح: «أنا فقير؟! إنّي لأستطيع أن أزن ثقلك ذهبًا يا صعلوك». فهدّأ الظريف من هياجه وأجابه ببرودة متناهية: «زاد الله في ثروتك يا سيّدي. ما عنيت أنّك فقير بالمال، بل بالعقل». وللحال سُرّي عن الثريّ، وهدأت ثورته، وقال بلهجة من ربح معركة حاسمة في الذود عن كرامته: «ليتك قلت ذلك في البداية»...

ويلوح لي أن السواد الأعظم من الناس – نظير ذلك الثريّ – لا يشعرون ولا يخجلون بفقر غير فقر الجيب إلى الفلس، والبطن إلى الرغيف، والبدن إلى الثوب والمأوى. أمّا فقر القلب الى العطف واللطف والدّعة والمودّة والمحبّة. وفقرالفكر إلى الفهم والتوازن والمضاء والصفاء. وفقر الضمير إلى العدل والسلام والطمأنينة. وفقر الخيال إلى الجرأة والإقدام، والمدى اللامتناهي. وفقر الروح – إجمالًا – إلى الحقّ والحريّة والجمال – أمّا ذلك الفقر الذي يشمل جميع الناس فقلّما تسمع من يشكوه أو يعطف عليه بين سكان الأرض. وهو الفقر الذي لولاه لما كان في الناس جياع وعطاش وعراة، ومشرّدون ومهانون ومنبوذون.

ليس من المجاز ولا من المغالاة في شيء أن تنعب الناس على بكرة أبيهم بالفقر...
كلّ منافق أو سارق فاسق – فقير
كلّ غضوب أو حقود أو ناقم – فقير
كلّ حسود أو نمّام أو مُراء – فقير
كلّ مزهوّ بمال أو جمال أو سلطان – فقير
كلّ مغرور بأصله أو بفصله أو بعمله – فقير
كلّ معتزّ بلقب أو وسام أو منصب – فقير
كلّ من كان ذئبًا في جلد حَمَل – فقير
كلّ من أكل خبزه بعرق جبين غيره – فقير
كلّ من أذلّ جاره ليعتزّ، وأجاعه ليشبع – فقير
كلّ من ركب هواه وجهل مبتداه ومنتهاه – فقير

لو شئت أن أعدّد كلّ ما في الناس من ضروب الفقر الروحيّ لما انتهيت – إلّا أنّني أكتفي بهذا الحدّ لتعرف أنّ جميع الناس فقراء، ولتتبيّن هول القحط الذي نعيش فيه بأفكارنا وقلوبنا وأرواحنا. فمن هذا القحط قلقنا وذعرنا وثوراتنا وحروبنا، وتطلّعنا إلى الغد بقلوب واجمة وعيون غائمة. ومن هذا القحط آفتنا الكبرى، آفة الفقر والفقراء.